الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي

أصول الصهيونية
في الدين اليهودي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعــة الثانية

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامى ـ ميدان لاظوغلى
تليفون : ٣٥٥٠٥٥٦ ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم الأستاذ كامل الشريف

وزير الاوقاف والشئون الاسلامية
بالمملكة الاردنية الهاشمية – سابقا

لا شك أن الصهيونية العالمية وقاعدتها الأمامية « اسرائيل » هى أكبر الأخطار على العالم الاسلامى فى هذا العصر ، وهو خطر يفوق فى طبيعته ما تعرض له المسلمون فى تاريخهم الطويل من هجمات الصليبيين والمغول والاستعمار الأوروبى الحديث ، ذلك لأنه استعمار لا يتجه لاحتلال الأرض فحسب كما فعل الغزاة السابقون ، ولكن يتجه لتدمير الأديان ، وهدم العقائد ، واستئصال الشعوب ، وافساد القيم والأخلاق ، ولقد استفادت الصهيونية من تجارب الاستعمار الأوروبى المدبر ، فوضعت الخطط الماكرة لتمزيق الشعوب العربية والاسلامية وضرب عوامل اليقظة فى مهدها ، واستعانت – فى كل ذلك – بالمؤسسات العلمية المتخصصة التى يشرف عليها الخبراء والباحثون فى الحقول السياسية والاجتماعية المختلفة ، وفى الوقت الذى يلبس فيه بعض الساسة الصهاينة قناع الحكمة والاعتدال لتخدير العرب ، واضعاف عزمهم ، نجد اسرائيل تضرب بذراعها الطويلة وأجهزتها السرية أى موقع فى العالم الاسلامى يحتوى على شىء من القوة ، أو يسهم فى تحقيق المناعة المادية أو الفكرية لدى الشعوب ، ولا شك أن الأوكار السرية التى خططت لضرب المفاعل النووى العراقى ، واثارة الفتن فى القارة الافريقية هى المسئولة أيضا عن اغتيال الفاروقى وعن سواه من العلماء والمجاهدين الذين يحددون أبعاد المؤامرة أو يثيرون الحماس لدى الشباب للوقوف أمامها .

ويزيد من ضراوة هذا الخطر واتساع مداه وجود مصادر مختلفة ترفده بالدعم على ساحة العالم كله ، فملايين اليهود الذى يقطنون الدول الأجنبية ويحملون جنسياتها ويتمتعون بامتيازاتها ، ويحتلون أرفع المراكز فى مؤسساتها هم – فى واقع الحال – أتباع لاسرائيل ، ينصرف ولاءهم الأول لخدمة الفكرة الصهيونية وقد ظهر تأثيرهم الحاسم فى دعم الدولة اليهودية فى مواقف كثيرة ، سواء فى التأثير على القرارات السياسية لتلك الدول أو فى حجم المساعدات المالية والفنية التى يوجهونها نحو اسرائيل ٠

ومن الأبعاد المهمة التى تظهر آثارها فى السياسة الدولية الراهنة حقيقة أن التوراة أو « العهد القديم » هو جزء من الكتاب المقدس عند المسيحيين ، وأن ما يحمله من نبوءات زائفة بحق اليهود المزعوم فى فلسطين قد دخل فى العقيدة المسيحية نفسها ، وأصبح يؤثر على مواقف القادة والساسة ازاء القضية الفلسطينية ، ولقد استغل هذا الموقف أسوأ استغلال وخصوصا حين تراجعت الكنيسة تحت الضغط وقدمت لليهود تنازلات جوهرية على حساب العقيدة المسيحية نفسها ، وهذا التطور الخطير فى العلاقات « المسيحية – اليهودية » يستحق أعظم الاهتمام من العرب والمسلمين لأنه يفتح للخطر الصهيونى آفاقا واسعة للتحرك والاستغلال ، ويعين الدولة اليهودية على مواصلة تنفيذ مخططاتها التوسعية على حساب العرب والمسلمين ٠ ولعل مما يتيح لهذا الخطر الماحق أن يتمكن ويستشرى ، أن كثيرا من الناس لا يقدرونه حق قدره ، حتى بين العرب الذين يميل بعضهم للتعامل معه كظاهرة سياسية عادية يمكن التعايش معها على صورة أو أخرى ، وهذا الموقف المستهتر هو الذى سمح من البداية باستقرار الغزوة الصهيونية فى فلسطين ولا يزال يمنحها الوقت لاعداد نفسها والمضى قدما فى أشواط العدوان والتوسع ٠

ومن دلائل ذلك موقف الميوعة الذى تقفه الدول العربية من مشاريع الصهيونية لتهجير يهود الاتحاد السوفييتى لاسرائيل ، فبينما ترى الصهيونية العالمية تحرك أنصارها على جميع المستويات للضغط على موسكو ، وترسل رؤساء الدول الأوروبية للقيام بالوساطة ، نجد بعض زعماء الدول العربية يؤيدون المساعى الصهيونية – بطريق غير مباشر –

اعتقادا منهم أن تحسن العلاقات « الروسية ـ الاسرائيلية » سيساعد على خدمة السلام فى الشرق الأوسط ، وهم فى ركضهم نحو هذا السراب الهزيل ينسون حقائق المجابهة وعنصارها الثابتة وهى أن السلام مع اسرائيل ـ على افتراض تحقيقه ـ سيكون هدنة مؤقتة ، تفضى الى حروب مستمرة ، لأن طبيعة الصهيونية هى التوسع الدائم ، وأن أى قوة لها سوف تعينها على هذا الهدف .

وأمام هذه الحقائق كلها تبدو أهمية الجهد الذى بذله الدكتور أسماعيل الفاروقى (رحمه الله) فى تحديد ملامح الخطر الصهيونى ، وتتبع جذوره الفكرية الضاربة فى أعماق التراث اليهودى ، التى تجعل من الصهيونية عقيدة عنصرية حاقدة على البشرية جمعاء وهو بهذا العمل النافع يقدم خدمة جلى للشباب العربى المسلم ـ لأنه يضع الفكرة الصهيونية فى اطارها الحقيقى مجردة من أقنعة الدهاء التى تختفى وراءها ، وحتى يدرك العرب والمسلمون أنه لا مجال للتفاهم مع الصهيونية فى أى يوم من الأيام ، وأن ما ينادى به بعض السذج من الساسة ورجال الاعلام عن امكانية « التطبيع » مع الكيان الصهيونى هو فى واقع الحال . دعوة للاستسلام الذليل للخطة الحاقدة التى تظهر ملامحها فى كل صفحة من صفحات هذا الكتاب .

لقد أعان الدكتور الفاروقى على هذه المهمة الجليلة انتماؤه لفلسطين ، وطنه الأول ومرتع صباه وشبابه ، ومواكبته الواعية لتطورات المأساة ، وكذلك اتقانه للغات عالمية كثيرة ، والمامه الواسع بمصادر الدين اليهودى ، الى جانب مواهبه العلمية المتعددة التى مكنته من تتبع أصول الفكرة العدوانية الضاربة فى الكتب المقدسة عندهم ، والتى تجعل منها عقيدة عنصرية توسعية لا تعترف بأنصاف الحلول ، فاما أن تغمر المنطقة العربية الاسلامية بأسرها أو أن ينهض المؤمنون للتصدى لها وتخليص العالم من شرورها .

ولست أشك أن الرسالة التى حملها الفاروقى ووضعها فى كتبه القيمة ، والتى ربما تكون قد كلفته حياته أيضا ـ تستحق أن يستوعبها الشباب العربى المسلم ـ وأن يزيد عليها فهما ووضوحا حتى تصبح

محور حياته وهدف وجوده ، وبذلك نضمن لجهود هذا العالم الشهيد أن تؤتى ثمارها ، وتحقق غايتها وأن تكون حياته ــ كمماته ــ علامة بارزة فى المسيرة الطويلة التى لا تقف الا بانتصار الحق وهزيمة البــاطل ، **« ويومئذ يفرح المؤمنون ٠ بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العــزيز الرحيم »** (١) ٠

غرة رجب سنة ١٤٠٨ هـ
١٩ فبراير سنة ١٩٨٨ م

كامل الشريف

* * *

(١) الروم : ٤ ، ٥

الصهيونية والدين اليهودى
دراسة تحليلية لنشأة الانفرادية فى التوراة

١ – ماهى الصهيونية وما هو الدين اليهودى ؟

الصهيونية ، كحركة سياسية ، تهدف الى جمع اليهود ولم شملهم وتهجيرهم الى فلسطين لتاسيس دولة يهودية فيها تدين بالدين اليهودى ، وتتميز بالعنصر اليهودى وبالثقافة اليهودية ، وبارادة بعث مملكة داوود ، نشأت فى أواسط القرن التاسع عشر على يد والدها وزعيمها الأول تيودور هرتزل . وهذا ليس موضوع هذه الدراسة .

أما الصهيونية كحركة دينية – فكرية ، أو تمدنية شاملة ، تهدف الى تمكين العنصر اليهودى من أداء رسالته ، وتتفهم هذه الرسالة كتملك لأرض الميعاد ، وقهر لجيرانها الأعداء ، وتركيز لسلطة العالم الروحية والحضارية والفكرية فى صهيون ، فهى فكرة قديمة ، قديمة جدا ، وهى موضوع دراستنا هذه .

« الدين اليهودى » عبارة أطلقت على الطقوس الدينية التى كان يمارسها سكان مملكة « يهودا » الذين سبوا من أورشليم الى بابل عام ٥٨٧ قبل الميلاد . وأطلق هذا الاسم فى المنفى ، أى فى بابل فقط ، فهو لم يكن يعرف قبل ذلك التاريخ . اذن ، فعبارة « الدين اليهودى » ليست عبارة ذات مدلول فحوى ، انما هى جغرافية صرفة ، مثل عبارة « الدين الهندوكى » أى الدين المتبع فى الهند . أما كلمة « يهودا » فمع أنها كانت تطلق على احدى القبائل قبل قيام الدولة المعروفة بهذا الاسم ، فهى لم تطلق كاسم لتلك الدولة الا بعد انفصال الشمال عن الجنوب ، وقيام دولة « اسرائيل » فى الشمال و « يهودا » فى الجنوب . وكانت مملكة يهودا تشمل لواءى القدس والخليل ، وكانت عاصمتها أورشليم .

حصر الدين اليهودى بالتوراة ، وأصبح دينا كتابيا بالمعنى الحرفى بعد عودة اليهود من منفاهم فى القرن السادس . ولا شك أن قسما من النصوص التى تتألف منها التوراة كان يؤلف أدبا دينيا قبل ذلك . الا أن جمع النصوص فى كتاب واحد ، وصبغه بطابع التقديس ، لم يتم الا فى عهد نحميا فى القرن الخامس وعلى يد الكاتب « عزرا » . فالتوراة ، أو « القانون » ، أو النصوص التى تتألف منها ، هى الأسفار الخمسة التالية : التكوين ، الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية . وقد سميت « حاميشا حومشى طوراه » أى أسفار القانون الخمسة أو (Pentateuch) .

والتوراة التى بين يدينا الآن ، هى هذا الكتاب الذى جمعه عزرا حوالى سنة ٤٢٥ قبل الميلاد . مع الاعتبار بأن بعض التغيرات لا بد قد دخلت اليه بسبب النسخ والحفظ عن ظهر قلب . وقد رأى اليهود أن الأسفار الأخرى التى يعتبرها المسيحيون مكونة للعهد القديم ، بمثابة شروح وتعليقات وحواشى تاريخية وعقائدية على الأسفار الخمسة . فمع أنهم يجلونها ويحترمونها ويقرأونها فى المعابد فهم لا يعتبرونها النص المقدس . ان الأسفار الخمسة فقط فى نظرهم جديرة بالاعتبار كنص قدسى .

اذن ، الصهيونية فى الدين اليهودى تعنى الصهيونية فى الأسفار الخمسة . ولكن هل يعنى هذا أن الصهيونية قديمة قدم عزرا ؟ أى القرن الخامس قبل الميلاد ؟ كلا ، فالصهيونية أقدم بكثير من ذلك . هى أقدم من الدين اليهودى بمعناه الملى الجغرافى . أصلها فى الدين العبرى . فما هو الدين العبرى ؟ وهل للدين العبرى كتاب مقدس غير التوراة ؟

الدين العبرى هو ما كان يدين به اليهود قبل سقوط أورشليم بيد البابليين . ففى ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون باسم « اليهود » بل باسم « العبريين » . سواء أكانوا مواطنى مملكة يهودا ، أو مملكة اسرائيل بعد انفصالها سنة ٩٢٢ ق.م. ، أو مواطنى يهودا وحدها بعد أن انصهرت اسرائيل فى قلب الامبراطورية الآشورية على يد سرجون

الثانى عـام ٧٢٢ ق٠م ، أو مواطنى الدولة المتحدة ابان حياتهـا بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٩٢٢ قبل الميلاد ٠

والكتاب المقدس لهذا الدين العبرى هو أيضا التوراة ٠ ولكن التوراة فى ذلك العهد لم تكن المجموعة التى نعرفها ٠ بل الأصل الذى نشأت عنه التوراة التى بين يدينا ٠ قبل عزرا ، كانت التوراة مجموعة أحكـــام اشترعها موسى لقومه فى صحراء سيناء اثر خروج العبريين من مصر ٠ ومع أن نسبتها الى موسى تنطوى على شىء من الحق ، يجب علينا أن لا ننسى ، أن تعديلات وتحريفات كثيرة أدخلت على شريعة موسى فى فلسطين فى هذه الأثناء ٠ وسنتناول بحث هذه التغييرات فيما بعد ٠

وعلى فرض أن الدين العبرى هو نفسه ما اشترعه موسى فى سيناء فالصهيونية فى الدين العبرى ، تعنى الصهيونية فى توراة موسى ، أى فى التوراة كما كانت فى السنين التالية للخروج من مصر عام ١٢٨٠ قبل الميلاد ٠ ولكن هل هذا يعنى أن لا صهيونية قبل موسى ؟ هـــل لا صهيونية قبل الشريعة التى يدعى اليهود أنها أنزلت عليه فى جبل الطور أو (Horeb) من قبل الاله يهوه ؟

لقد أجاب الفيلسوف اليهودى مارتن بوبر على هذا السؤال اجابة صارمة ٠ وكان قد أعطى جوابه ردا على ادعاءات سيجموند فرويد بـأن شخصية موسى وما انطوت عليه من عقد نفسية حللها تحليلا نفسيا على طريقته المعروفة ، هى السبب الأول فى تكوين الشـخصية اليهـودية وبالتالى الدين اليهودى مدى الأجيال (١) ٠ ومن الطريف أن الدكتور محمد كامل حسين حاول نفس التحليل ولنفس الغاية ، أى تفسير تكوين الشخصية اليهودية والدين اليهودى ٠ ومع أن الطريقة التى اتبعها هى نفس طريقة فرويد أى التحليل النفسانى ، فهو لم ينسب هذا التكوين الى شخصية موسى بل الى الأحداث والتجارب التى رافقت خــــروج

(١) كما جاء فى كتابه :
Freud, Sigmund, Moses and Monotheism, tr, by Katherine Jones, A. A, Knopf, New York, 1939.

بنى اسرائيل من مصر ، وأهم هذه الأحداث فى نظره كانت معجزة نجاتهم من موت محقق على يد فرعون وجنوده (٢) ٠

قال بوبر : « ان تعاليم الدين اليهودى اتت من سيناء فهى تعاليم موسى – أما روح هذا الدين فهى أقدم من سيناء ٠ هى الروح التى جاءت الى سيناء ، فتسلمت هناك ما تسلمته مع شرائع ٠ هى أقدم من موسى ٠ هى بطريكية (أى من عصر البطاركة أو الأجداد الأقدمين) ٠ هى روح ابراهيم ٠ أو بالأحق ، طالما أنها انتاج عصر قديم جدا ، هى روح يعقوب و « يعقوب » هنا ترمز الى « اسرائيل » أى الى الشعب اليهودى نفسه » (٣) ٠

فمراد بوبر اذن ، هو التاكيد بأن الدين اليهودى قديم قدم اليهود أنفسهم ، وأن علينا أن نبحث عن الدين اليهودى بمعنى الروح ، لا التعاليم ، لا فى الشرائع أو الكتب المقدسة اليهودية ، بل فى روح الشعب نفسه فى أقدم عصور تاريخه المعروف ٠ والحق ولا شك ، فى جانب بوبر ٠ فالروح اليهودية الأصيلة – وعلينا أن نبحث عن الصهيونية فيها – أقدم من موسى وتوراته ٠ ودلائل وجودها متوفرة فى دين البطاركة ، أى فى دين العبريين أثناء وجودهم فى مصر ، بل وقبل دخولهم مصر ٠

والواقع ، أن الصهيونية كما عرفناها دينيا وفكريا ، هى لب هذه الروح اليهودية الأصيلة ٠ فهى التى حافظت على عبرية العبريين فى مصر ومنعتهم من الانصهار فى جسم الأمة المصرية ٠ ولولاها لما كان هناك اضطهاد للعبريين من قبل المصريين ، ولا كان خروجهم هربا من ذلك الاضطهاد ٠ اذن ، يجب علينا أن نرجع لدراسة أصول الصهيونية فى العصر البطريكى ٠ ولكن ما هى الأصول النصية التى وصلتنا من ذلك العهد

---

(٢) انظر بحثه فى متنوعات ، القاهرة ، بدون تاريخ ، عن « الخروج : قصة رائعة » ٠

(٣) Buber, Martin. Israel and the World – Essays in a Time of Crisis, Schocken Books, New York, 1948. p. 28.

أى بين سنة ٢٠٠٠ و ١٢٨٠ قبل الميلاد ؟ وهل كان للبطاركة كتاب مقدس ؟ وما هو ؟ وكيف لنا التاكد من صحة أنباء ذلك العهد الغابر ؟

ان هذا الذى يسمى بالتوراة ، ليس كتابا واحدا ذا مؤلف واحد بل هو مجموعة نصوص من عدة أقلام مدى العصور الكثيرة . وهو أشبه بالنهر الذى يجرى من رأس العين الى المصب . بيد أنه يستقبل عددا من الأنهار الفرعية أثناء الطريق ، فتمتزج مياهه بمياه هذه الأنهار (٤) .

فماء النهر عند المصب هو التوراة التى بين يدينا الآن ، فيها القديم جدا ، أى مياه رأس العين ، أى ما لم يتبخر من مياه رأس العين ولم يرفع للسقاية ولم يضع فى الطريق من مياه رأس العين ، وفيها المتوسط ، أى المياه التى دخلت النهر فى الطريق ، وفيها الحديث . ففى كل صفحة من صفحاتها ، تلتقى عناصر متفاوتة فى القدم نسجت على هذا القالب الذى نقرأ فى النص الذى وصل الينا . الا أن الخيوط نفسها ، وكذلك عمليات النسج والتقميش ، متفاوتة الأعمار . ولكن لحسن الحظ ، ليس الأمر تماما كما فى النهر . فالخيوط التوراتية احتفظت بمميزاتها اللغوية ، وغير اللغوية الخاصة . فان امتزجت مع بعضها البعض ، فأغلبيتها لم تصهر ببعضها البعض فتضيع هويتها . وذلك سهل على الباحثين أمر اكتشافها وعزلها عن بعضها .

وقد اتفق علماء التوراة أن الأسفار الخمسة تتألف من أربعة عناصر أو خيوط، وأطلقوا عليها الأسماء (J,E,D,P) . والغرض من هذه الرموز هو تحديد هوية الخطوط ليس الا . وهى تشير الى خاصية مهمة من خصائص كل من الخيوط . فالخيط (J) هو النص الذى سمى فيه الاله باسم يهوه (٥) . والخيط (E) هو النص الذى سمى فيه الاله باسم الوهيم .

---

(٤) استعير هذا التشبيه من :
Frost, Stanly Brice, The Beginning of the Promise S.P.C.K. London, 1959.

(٥) « يهوه » ليست كلمة ولا هى مسمى . هى القراءة اللاتينية للأحرف العبرية الأربعة أى « ى هـ و هـ » التى ذكرتها التوراة كرمز =

ومن المسلم به لدى رجال العلم أن هذه التسميات جاءت من عصور مختلفة ٠
أما الخيط **(D)** فهو الذى أدخلته الى التوراة «حركة الاصلاح التثنوى» أو **(Deuteronomic Reform)** ٠ وهذا هو الاصلاح التشريعى الذى تم فى عهد الملك يوشع بين سنى ٦٠٩ و ٦٤٠ قبل الميلاد ٠ ومعظم مواد هذا الخيط موجود فى سفر التثنية ومن ثم سميت بهذا الاسم ٠ وأخيرا ، الخيط **(P)** هو الذى أدخله الى التوراة الكهنة ،لا سيما عزرا المذكور ، اذ كان لمراجعته وتحريفه للتوراة أكبر الأثر فيها ٠ وقد اصطلح على تسمية هذا الخيط بـ **(P)** رمزا الى **(Priestly code)** ، أى تشريع الطقوس التعبدية والقربانية والكيفيات والمقادير الهيكلية (أى المعبدية) التى بلورها عزرا والتى تؤلف معظم مواد هذا الخيط ٠

ويرجع أمر اكتشاف هذه العناصر وتثبيتها الى العلماء فون جراف **(Von Graf)** وكوهنن **(Kuenen)** وويلهاوزن **(Wellhausen)** فى أواسط القرن الماضى ٠ فهؤلاء دفعهم حبهم للاستطلاع لدراسة القرآن الكريم بحثا وراء ما يلقى الضوء على العهد القديم الذى كانوا يدرسونه بقصد تفهمه تفهما علميا نقديا تحليليا ٠ **وفى دراستهم للقرآن الكريم تشبعوا بالمبدأ** القرآنى القائل بأن بنى اسرائيل تلاعبوا فى كتابهم المقدس ، وانهم حرفوه حاذفين منه ما حذفوا ومضيفين اليه ما أضافوا لطمع غير خلقى فى نفوسهم ٠ فزعزع هذا المبدأ ما نشأوا عليه من ايمان بأن التوراة هى نفسها ، فى كل حرف من حروفها ، من صنع الله ٠ وأخذوا عندئذ ، بدلا من الحيرة فى تفسير النزعات المختلفة التى تنم عنها نصوص التوراة ، يتبينون مختلف الأيدى وراء هذه النصوص ٠ فراحوا يبحثون عن أصولها وعن الأحوال التاريخية التى أدخلت هذه المواد فى التوراة

= للاله ٠ وهنالك محاولات عديدة لتفسير هذه الرموز بارجاعها الى كلمات ذات معنى ٠ والمهم أن نلاحظ أن اليهودى ، عندما يأتى الى هذه الرموز فى قراءته للتوراة ، لا يلفظها « يهوه » بل يعتبرها رمزا للاله فيقرأها « أدوناى » بمعنى « الرب » ٠

تحت ظروفها (٦) فكانت علوم التوراة النقدية التى عرفها القرن الأخير ٠

هذه هى بداية نقد الكتاب المقدس ٠ عنها تفرعت العلوم النقدية جميعا ٠ ولخدمة هذه العلوم ، نشأ علم الآثار القديمة ، وقام البحاثون يجولون الأقطار العربية بحثا عن هذه الآثار ٠ وعن هذه ، نشأ عـلم التاريخ القديم ، اذ كان المؤرخون يتتبعون ما يكتشفه علماء الآثار ، ويبنون نظرياتهم فى ذلك التاريخ على هذه المكتشفات ٠ ومنذ ويلهاوزن ، وعلماء العهد القديم يقيمون النظرية تلو النظرية والتفسير التوراتى تلو التفسير ، ويهدمون ما حققه أسلافهم من قبل تبعا لمكتشفات الآثار التى أخذت تتزايد بشكل عظيم سنة بعد سنة ، وتماشيا مع ما كانت تجلو عنه هذه المكتشفات من حقائق تاريخية ٠ وعن هذا الأصل الدينى نشأت العلوم السامية كلها ، وأعيدت كتابة تاريخ الأمم القديمة ، الى أن أصبحت حياة وفكر وعادات المواطن الفرعونى ، والمواطن الكنعانى ، والمواطن الآشورى والسومرى تقرأ فى كتب الجيب والقصص وتشاهد فى دور السينما ٠ وأصبح تعلم الصرف الأكادى والنحو البابلى والخط المسمارى أمورا عادية فى أية جامعة من جامعات الغرب ٠

ومع أن المبدأ القرآنى بقى وأكد مبدأ هذه العلوم كلها ــ فهى جميعا بكل ما حققته من تقدم للفكر الانسانى تعتبر حواشى علقتها العبقرية الغربية والدأب العلمى الذى لا يعرف الكلل على القرآن الكريم ــ لم يتقدم أحد من العرب أو المسلمين لدراستها حتى الآن ٠ والمكتبة العربية ، وان احتوت على بعض المؤلفات أو الترجمات عن مادة ما من مواد الفكر القديم فى الشرق العربى ، فهى خالية تماما من أية دراسة علمية لتاريخ التاريخ القديم ، أو للتاريخ القديم نفسه (٧) ٠

---

(٦) انظر :

Noth, M ; Ueberlieferungsgeschichte des Pentateuchs W. Kohlhammer, Stuttgart, 1948, pp. 4—44 ; Von Rad, G., Das Formgeschichtliche Problem des Hexateuchs, in Gesammelte Studien Zum Alten Testament, C. Kaiser, Verlag, Munich, 1958, pp. 9—86.

(٧) راجع مقالا للمؤلف بعنوان : Towards a historiography of pre Hijrah Islam فى مجلة (Islamic Studies) العدد =

لنرجع الى التوراة فى خيوطها الأربعة . طالما ان الايمان بأصل التوراة الالهى زعزع والغى ــ وبهذا أكمل القرآن الكريم الثورة العقلية التى أشعلها الاسلام على اللاعقلية فى القرون الوسطى ــ لم يجز علماء العهد القديم اتخاذ نصوص التوراة كأنها محققة فيما تقوله من الانباء الا بالاثبات العلمى . وهنا جاء علم الآثار يقدم دليله . فآثار فلسطين ، ورأس شمر (Ugarith) وتل الحريرى (Mari) فى ديار الشام ، ثم آثار العمارنة (Akhetate) والفنطينة وغيرها فى مصر ، وآثار بابل وآشور فى شمال العراق وجنوبه ــ كل هذه كان لها علاقة مسيسة بالتوراة ، والتاريخ اليهودى القديم . فعلم التوراة اذن علم نقدى ، لا معرفة دينية كشفية . ويمكننا أن نتثبت تثبتا علميا صحيحا من معظم ما وصل اليه من نتائج فى هذا البحث .

والخيوط (J,E,D,P) لم تؤلف تأليفا ، أى انها لم تأت من العدم ولم تدخل الى التوراة دفعة واحدة ، بل تكونت ببطء وعلى مدى أجيال وقرون طويلة . وكذلك هى لم تدخل الى التوراة دفعة واحدة بل أيضا ببطء بعد أن الفها الناس شيئا فشيئا . اللهم الا اذا استثنينا ما قام به عزرا من مراجعة وتحريف وتشريع فنرى الظروف غير العادية التى حقق فيها فعلته فيما بعد . ولقد كانت فحاوى هذه الخيوط مواد وأنباء قرون وعصور خلت ، مواد أجيال غير التى حصل نسج التوراة فيها .

والأزمنة المتفق عليها لهذه الخيوط هى : القرن العاشر لـ (J) ، والقرن الثامن لـ (E) ، والقرن السابع لـ (D) ، والقرن الخامس لـ (P) . الا أن مواد هذه الخيوط ترجع الى عصور سابقة لهذه الأزمنة . لنأخذ لذلك مثلا أو اثنين . تتحدث الاصحاحات ١١ ــ ٢٣ و ٣٤ من سفر الخروج عن الميثاق . وقد ثبت أن نسج هذه الاصحاحات تم فى القرن العاشر الا أن النقد العلمى أثبت أن المواد القانونية التى يحتوى عليها ذلك الحديث هى قوانين كان يعمل بها فى عصر الخروج . أى فى القرنين الثالث عشر

= الثانى ، السنة الأولى ، نيسان ١٩٦٢ ، التى تصدر عن المعهد المركزى للأبحاث الاسلامية فى الباكستان فى كراتشى .

والثاني عشر (٨) . وكذلك ، ان عادات الزواج التى يحدثنا عنها سفر الخروج ، هى نفسها العادات التى تحدثت عنها آثار رأس شمرا ، وهى من القرن الرابع والخامس عشر ، وآثار تل الحريرى وهى من القرن الثامن عشر والتاسع عشر (٩) . فلهذه الأسباب لا بد من المقارنة مع الثقافات والديانات الأخرى السائدة فى الشرق العربى فى تلك العصور كى نصل الى تقدير نصوص التوراة حق قدرها (١٠) .

لنكتفى بهذا القدر من المقدمة ، ولنبحث الآن عن الصهيونية فى أبعد العصور ، فى العصر السابق للعصر البطريكى . ولنرجع الى ما تحدثنا عنه التوراة فى هذا الصدد .

* * *

٢ — أين الصهيونية فى أوائل العصر البطريكى ؟

تستعرض الاصحاحات الأحد عشر الأولى من سفر التكوين قصص الخلق وآدم وحواء ، وقابيل وهابيل ، ونوح والطوفان ، وانقسام الامم

---

(٨) انظر تفصيل ذلك فى كتاب Cazelles, H., Etudes sur le Code de l'Alliance, Letouzey et Ané, Paris, 1949.

(٩) انظر تفصيل ذلك فى مقال Albright, W.F., «The role of the Canaanites in the history of civilization,» Studies in the History of Culture, Albright, W.F., editor, G. Banta Publishing Co., 1942, pp. 11-50.

(١٠) راجع الكتب الآتية للتعمق فى بحث نشأة وتطور الكتاب المقدس كنص :

Wright, G.E. and Fuller, R.H. ; The Book of the Acts of God, Doubleday and Co., New York, 1957 ; Albright, W.F., Archeology and the Religion of Israel, Oxford University Press 1953 ; From the Stone Age to Ghristianity, Doubleday Anchor Books, New York, 1957 ; Wellhausen, J., Prolegomena to the History of Ancient Israel Meridian Books, New York, 1957 Wright, G.E. The Old Testament Against its Environment, S.C.M. Press, London, 1952 ; Rowley, H.H., ed., The Old Testament and Modern Study, Clarendon Press, Oxford, 1951.

حسب لغاتهم (قصة برج بابل) · وهذه القصص الخمس ، لا شيء منها غريب ولا شيء فيها جديد · وان اختلفت بعض التفاصيل فيها ، فهى جميعا ، حتى بالحذافير ، موجودة فى آثار سومر وبابل منذ الألف الرابع · ويتضح ذلك من لوحات نوزى (Nuzi) وبابل وأور وغيرها من آثار الأقدمين (١١) ·

ويدل وجود هذه القصص عند الأقدمين السابقين لأقدم البطاركة اليهود ، على أن موادها لم تكن فى يوم من الأيام وقفا على بنى اسرائيل بل كانت تراثا روحيا لجميع شعوب الشرق العربى ويدل أيضا وجودها على أن الاختلافات التى قد توجد بين نصوصها الأثرية والتوراة ليست الا اختلافات طبيعية أملتها خصائص الشعوب المعنية فى تفهمها لما كانت تعتبره تراثا لها وفى تمثلها لهذا التراث · وبالرغم من المعانى القيموية الهائلة التى ترمز اليها هذه القصص ، لا يعنينا منه الآن سوى قصة قابيل وهابيل ·

ترمز هذه القصة الى تقابل الرعاة ، وهم سكان البادية ، مع الفلاحين ، وهم المستقرين فى أرض الفلاحة فى ديار الشام ، وما بين النهرين ، اذ تقول التوراة : « وكان هابيل راعيا للغنم ، وكان قابيل

---

(١١) لقد ترجمت أهم هذه اللوحات الى الانكليزية ونشرت من قبل فى كتاب واحد بعنوان :

Pritchard, James B., Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Princeton University Press, Princeton 1950.

راجع أيضا :

de Vaux, R., «Les Patriarches Hebreux et les **découvertes modernes» Revue Biblique, LIII, 1946, pp. 321–348 ; Rowley, H.H. «Recent Discovery and the Patriarchal Age,» The Servant of the Lord and Other Essays, Lutterworth Press, London, 1952 pp. 271–305.**

عاملا فى الأرض » (١٢) ٠ وتذهب التوراة الى أن قابيل اغتاظ من هابيل ، وتذكر سبب غيظه أن الله تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ٠ وعليه تقول : ان قابيل قتل هابيل غير متناسية أن القاتل والمقتول آخوان (١٣) ٠

وفى الواقع ، هابيل هو « آخو » قابيل ، لا بالمعنى الحرفى ، بل بالمعنى التسلسلى الجماعى ٠ فالنازحون عن الصحراء والداخلون الى الأرض المجاورة لم يكونوا فى عصر من العصور غرباء على الفلاحين المستقرين ، لأن أولئك لم يكونوا الا مجرد سابقين لهؤلاء ٠ فالفلاحون ، كانوا يوما مهاجرين بدويين جاءوا من نفس المكان أى من الصحراء العربية ٠ فالشخصيتان ليستا الا رمزين للمهاجرين الصحراويين السابقين منهم واللاحقين ٠

لنقارن بين قصة التوراة وقصة سومر ٠ تقول الثانية ان الراعى واسمه دوموزى ، جاء الى ديار انكمدو ، وهو الفلاح ، وخطب انانا ، احدى بنات ديار انكمدو ليتزوج منها ٠ لكن انانا أبت لأنها كانت ترغب فى الزواج من انكمدو ٠ عندئذ ، يتغنى دوموزى أمامها بذكر محاسنه ، ومحاسن حياته البدوية الى أن تقتنع انانا وتوافق على الزواج منه ٠ يذهب دوموزى بعد هذا النصر الى انكمدو مختالا فخورا ، بل متأبطا شرا لمقاتلة انكمدو ، منافسه الخاسر ٠ فبدل أن يبادله شرا بشر ، يدعو انكمدو دوموزى الى رعى ماشيته فى أراضيه ويصادقه ٠ وعندما يعقد زواج العروسين ، يحضر انكمدو العرس ويغدق الهدايا عليهما (١٤) ٠

لا شك أن النص السومرى أقرب الى الواقع التاريخى من النص التوراتى ٠ ذلك أن دخول البدو ما بين النهرين والديار الشامية لم يكن

---

(١٢) سفر التكوين ، ٤ : ٢ ٠
(١٣) المرجع السابق ، بقية الاصحاح ٠
(١٤) راجع هذه القصه فى كتاب (Prichard) المذكور ، ص ٤١ ــ ٤٤ ٠

عن طريق الحرب والفتح ، بل كان دخولا بطيئا مسالما عن طريق الهجرة المحدودة والتسلل المسالم • وكانت وسيلة هذا الدخول الأولى المصاهرة ، لا سفك الدماء ، كما تصورها مؤلف الخيط (J) من سفر التكوين • فمقارنة القصتين تدل على طبيعة النفس العبرية وهى طبيعة عنيفة حاقدة ، بينما طبيعة سومر وأكاد وبابل وآشور طبيعة مسالمة مؤاخية لسكان البادية • وتدل المقارنة أيضا على أن هذا النص من (J) لا بد وأن يكون قد حرف فى العصور اللاحقة ، لا سيما عصر المنفى وهو عصر الحقد الأكبر ، فعكس روح الحقد والكراهية والعنف • وسنرى فيما بعد ، كيف غير هذا العصر الحاقد تاريخ دخول العبريين الى فلسطين بعد الخروج من مصر بنفس الطريقة •

وكذلك ، تدل قصة بابل وبرجها على انقسام الأمة الواحدة ، ذات اللسان الواحد ، الى شعوب عدة ، لكل منها لغته ، أو بالأحرى لهجته ، وكيانه المستقل ، فهى ان دلت على شىء ، فانما تدل على وحدة الأمة السامية أو العربية فى الأصل ، أى فى البادية • ذلك أن انقسامها لم يحصل الا عند تأسيسها المدن والأبنية ، أى فى الأراضى الفلاحية والاستقرار فيها • اذ تقول التوراة : « وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة • وحدث فى ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك • وقال بعضهم لبعض : هلم نصنع لبنا ونشويه شيا فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الحمر مكان الطين • وقالوا هلم نبنى لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء • ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض » (١٥) •

اذن ، فى أوائل العصر البطريكى ، لا نجد أثرا للصهيونية كما عرفناها ليس فى الاصحاحات الأحد عشر الأولى من سفر التكوين والتى تتحدث عن هذا العصر ، شىء ما يمكن اتخاذه أساسا لأية خاصية أو انفرادية •

كما تشترط الصهيونية • نعم ، لقد فضل الله هابيل على قابيل

---

(١٥) سفر التكوين ، ١١ : ١ – ٤ •

الا أن هابيل أصبح أبا للجميع ، لا لشعب واحد . ولقد فضل الله بعده نوحا وهذا التفضيل الثانى ، يعدم مفعولية التفضيل الأول لهابيل ، ذلك أن الطوفان قضى على كل شىء حى ما عدا نوح وأبنائه . ومع هذا ، فان التوراة تذكر أن تفضيل نوح لم يكن عرضيا كما كان الحال عند هابيل (١٦) ، بل كان تفضيلا يقوم على أخلاقية نوح وفساد البشر . قالت التوراة : « وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك الى الفلك . لانى اياك رأيت بارا لدى فى هذا الجيل » (١٧) . فالتفضيل هنا تفضيل خلقى ، والتفضيل الخلقى واجب لا غبار عليه . وهو التعبير العملى الذى اقتبسته لغة الأساطير للتعبير عن المبدأ الأخلاقى القائل بأن السعادة هى نتيجة الفضيلة . أو كما قال تعالى **« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (*) .**

* * *

٣ ـ أين الصهيونية فى العصر البطريكى ؟

اذا ما أدرنا الطرف الى الاصحاح الذى يلى ، أى الاصحاح الثانى عشر وجدنا تفصيلا غريبا . نقرأ : « قال الرب لابرام : اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التى أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ، وألعن لاعنيك . وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » (١٨) .

فهذا الأمر الخطير جدا بترك الأب والعشيرة والأرض والهجرة الى المجهول ثم الوعد بأن يجعل الله لابراهيم أمة عظيمة مباركة ، ومباركة

---

(١٦) « وحدث من بعد أيام أن قابيل قدم من أثمار الأرض قربانا للرب . وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها . فنظر الرب الى هابيل وقربانه وغض النظر عن قربان قابيل . فاغتاظ قابيل جدا وسقط وجهه » (المرجع السابق ، ٤ : ٣ ـ ٥) .

(١٧) المرجع السابق ، ٧ : ١ . وكذلك ، « رأى الرب أن شر الانسان قد كثر فى الأرض . الا أن نوحا كان رجلا بارا ، كاملا فى أجياله . وسار نوح مع الله » (المرجع السابق ، ٦ : ٥ ، ٩) .

(*) الزلزلة : ٧ ، ٨

(١٨) المرجع السابق ، ١٢ : ١ ـ ٣ .

جميع من حولها لا تذكر التوراة سببا له . قلب التوراة من أولها الى آخرها فأنت لن تجد فيها تعليلا لهذا الأمر والعهد . بل على العكس ، أنت تجد أن كل ما حصل فى التاريخ مبنى بناء سببيا مباشرا على هذا الأمر والعهد . فهو ليس بمعلول بل علة كل معلول هو العلة الأولى التى لا تفسير ولا داعى ولا سبب لها . وهذا هو التفضيل الذى يمكن أن يتخذ أساسا للانفرادية عن سائر البشر .

وفعلا كان . فقد بنى عليه اليهود نظرية تفوقهم على البشر وانفراديتهم عن الناس ، وأفضليتهم على جميع المخلوقات فى نظر الخالق . وعليه وقفوا تكوينهم أمة فريدة تقف من الأمم موقف المختار الذى يتمتع بحقوق ليست لغيره . وهم يعترفون ، بل يفتخرون ، بأنهم أبناء ابراهيم الذى اختير وفضل على العالمين . فالاختيار — فى نظرهم — لا للرجل فحسب ، بل لأبنائه وسلالته . وهم يعلنون أن هذا الاختيار لم يكن أخلاقيا وليس له علة .

فاصطفاء الاله لابراهيم أمر عرفى ، تلقائى ، قام به الاله لسر فى نفسه ، لعله حنينه الى هذا الشعب من دون الشعوب .

بل أكثر من هذا . فاليهود يقولون بأن هذا التفضيل هو عقد دخل فيه الاله . فهو ملزم الى الأبد . وأفضلية اليهود أزلية لن تتغير والعقد الذى دخل فيه الاله ذو اتجاه واحد ، فهو عهد لا عقد فى المعنى القانونى ، لأنه لا يلزم الا جانبا واحدا هو جانب الاله المتعاقد . ولهذا التفهم ، أو تحويل العقد الى عهد ، تاريخ طويل (١٩) لا يجوز لنا التعرض له فى هذا المقام . واليهود يسمون أنفسهم « شعب الميثاق » اشارة الى هذا العقد أو العهد — الالهى المقطوع الى ابراهيم وذريته .

---

(١٩) انظر تفاصيل هذه النظرية فى كتاب (Frost, Stanley B.) المذكورة أعلاه ونقد المؤلف لهذه النظرية فى مجلة (The Christian Outlook) عدد نيسان ١٩٦٠ ، تحت عنوان « مراجعة كتاب The Beginning of the Promise» ، وانظر أيضا الدفاع المسيحى عن هذه النظرية فى كتاب (Mendenhall G.E., Law and Covenant in Israel and the Ancient Near East, The Biblical Colloquium 1955).

فهذا الادعاء اليهودى غير خلقى ومناف للعقل السليم . فلا بد أن يكون بعض اليهود قد حاولوا تأويله بشكل ما يتلاءم مع المنطق . فما هى هذه المحاولات ؟

قبل أن ننظر فى هذه المحاولات ، يجب علينا أن نتذكر أنه لم تقو أية واحدة منها فى يوم من الأيام عبر القرون الطويلة ، وقتما كانت التوراة لا تزال فى دور النسج ، لدرجة مكنتها من دخول التوراة كنص مقدس . فان وجدت على الاطلاق ، ففى التفاسير وكتب القصص فقط لا فى التوراة . وعندما وعى المسيحيون هذه الحقيقة ، راحوا هم أيضا يبررون الاختيار .

فالتبرير اليهودى لاختيار ابراهيم نوعان . نوع يعتمد على أخلاقية الرسالة اليهودية فهو يبرر الاختيار بتخليقه (أى بجعله أخلاقيا) . ونوع آخر يجعله يعتمد على التوحيد .

فحوى التبرير الخلقى التخليقى أن الله اختص اليهود بالرسالة كى يحقق سيطرة القانون الأخلاقى المطلق فى العالم ، فاليهود فى هذا الرأى شعب الله المختار لأنهم ، باختصاصهم ، أمة قائمة على التوراة ، والتوراة هى القانون الأخلاقى المطلق ، يضربون مثلا للكمال الخلقى فى العالم (٢٠) . يخالف هذا الادعاء نظرية العهد المقطوع ، ذى الاتجاه الواحد ، التى ترددها التوراة فى كل صفحة من صفحاتها تقريبا . اذ يضع على عاتق اليهود واجب الالتزام بالقانون الأخلاقى العام ، وان اعتبرنا جدلا أن هذا القانون هو التوراة . ولا بد ، وقد نشأ « الموجب » الأخلاقى عليهم ، من أن ينقض الاختيار اذا لم يحققوا « الموجب » ويمتثلوا للقانون . الا أن موقف اليهود هو أن الاختيار أزلى غير قابل للنقض . اذن فالتزامهم بالقانون أو عدم التزامهم سواء .

(٢٠) انظر كمثل لهذا التبرير ما قاله حاخام الامبراطورية الانكليزية الأكبر ، دفاعا عن اختيار الله لابراهيم فى :
(Hertz, J.H., editor, The Pentateuch and Haftorahs – Hebrew Text and translation, Soncino Press).

والقانون الأخلاقى نفسه غير ضرورى ، ولا علاقة ضرورية لأيهما مـــع الاختيار . فهذا يبقى مستقلا عنهما .

ومع هذا فالتوراة تردد مرارا أن اختيار الله لبنى اسرائيل ليس بسبب أخلاقيتهم . فهذا القول الصريح لا يترك مجالا للشك فى هـذا الأمر . وهو - أى قول التوراة - يحذر اليهود من أن ينسبوا اختيارهم الى أى شىء خلقى ويؤكد أن الله اختارهم بالرغم من عدم أخلاقيتهم . تقول التوراة ، وهذا مثل من كثير : « اسمع يا اسرائيل (٢١) أنت اليوم عابر الأردن لكى تدخل وتمتلك شعوبا أكبر وأعظم منك ومدنا عظيمة ومحصنة الى السماء . قوما عظاما وطوالا . بنى عناق الذين عرفتهم وسمعت من يقف فى وجه بنى عناق فاعلم اليوم أن الرب الهك هو العابر أمامك نارا آكلة . هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعا كما كلمك الرب . لا تقل فى قلبك حين ينفيهم الرب الهك من أمامك قائلا : لأجل برى أدخلنى الرب لأمتلك هذه الأرض ... ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل ... لكى يفى بالكلام الذى أقسم الرب عليه لآبائك ابراهيم واسحاق ويعقوب . فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب الهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شـعب

---

(٢١) « اسرائيل » هو الاسم الذى يطلق على ذرية ابراهيم واسحاق ويعقوب . وقد أعطاه يهوه لأول مرة ليعقوب بعد ان تعارك معه طيله الليل الى أن قال له « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل . لأنك جاهدت مع الله وقدرت » (سفر التكوين ، ٣٢ : ٢٨) . وتعنى كلمة يعقوب بالعبرية « المحتال » ، وأصلها من « عقب » أى المؤخرة . ومؤخرة الجسم المعنية هنا هى كعب القدم . والانشقاق يأتى عن طريق أن المحتال انما يتبع ضحيته بالسير خلفها ، يتعقبها ، وينقض عليها فيسلبها مالها دون أن تنتبه . أما كلمة اسرائيل فتعنى المنتصر على الاله وذلك لانتصار يعقوب على الاله الذى صارعه . وسمى العبريون أنفسهم بالاسرائيليين تيمنا باسرائيل الذى هو يعقوب وأخذوا يدعون أن الانتصار لم يكن على الله بل الى الله ، غير آبهين بالتناقض الذى وقعوا فيه . انظر كتاب (Hertz, J.H) المذكور ، ص ١٢٤ .

صلب الرقبة » (٢٢) . فلا يجوز اذن لليهود تبرير اختيارهم على أى أساس خلقى .

أما النوع الثانى من التبرير اليهودى ، فهو يرمى الى جعل ابراهيم وذريته من بعده مختارين نظرا لتوحيدهم . وهذا رأى شائع .

الا أن الحقيقة التاريخية التى لا شك فيها ، هى أن توحيد ابراهيم وتحطيمه للأوثان التى كان يقدسها أبوه وأهله لم تذكر فى أى أثر وصل الينا قبل القرآن الكريم . فالقرآن مصدرها الأول والأخير . والأغرب أن كتب تأويل التوراة عندما تذكر توحيد ابراهيم تنسج له من القصص والأحاديث والأخبار ما يؤكد أشد التأكيد بأنها نقلت عن القرآن الكريم . وأسبق وأقدم ما لدينا من نصوص يهودية قالت هذا القول فى ابراهيم هو المدراش هاجادول ، الذى اكتشف فى اليمن فى أواسط القـــرن الماضى ، وتشهد محتوياته بأنه ألف فيما بعد القرن الثالث عشر للميلاد ولا بد فى هذه المناسبة من الاشارة الى البحث الذى حقق ذلك التفنيد لهذا المزعم (٢٣) .

ولننتقل الآن الى حجج المسيحية وهى نوعان : نوع يعتمد على العقيدة المسيحية ، والآخر على دراسة مقارنة لآثار الشرق العـــربى القديمة .

يقول المسيحيون ، محاولة منهم لتبرير هذا الاختيار الذى لا علة له ، بأن الله أراد منه أن تكون سلالة بشرية ينحدر منها السيد المسيح . وقد ألفوا فى ذلك كتبا عديـــدة (٢٤) . ولكن على فرض أن عيسى ابن مريم هو المسيح . المخلص بالفعل ، الذى أرسله الله ليقوم بهـــذا

(٢٢) سفر التكوين ، ٩ : ١ — ٦ .

(٢٣) وهو بحث للمؤلف عنوانه: On Arabism, Vol. 1, Urabah and Religion : An Analysis of the Dominant Ideas of Arabism and of Islam as Its Highest Moment of Consciousness, Djambatan, Amsterdam, 1962.

(٢٤) انظر مثال ذلك فى Mowinckel, S. He That Cometh, B. Blackwell, Oxford, 1956.

التخليص ، ما هى علاقة الانحدار السلالى بعملية التخليص ؟ وهل لا بد من الانحدار من سلالة معينة للقيام بأعباء التخليص ؟ أفلا يجوز للاله أن يضع رسالته الا فى سلالة معينة ؟ وهل تعيين سلالة ما لتخريج المخلص بيولوجيا يعنى بالضرورة أفضلية هذه السلالة اللاأخلاقية على سائر البشر ؟ أليس العكس أقرب الى المنطق والصواب . فان كان لا بد من التفضيل ، فعلى أساس الأخلاقية ، أى أن أخلاقية السلالة تكون سببا لاختيارها وعاء للرسول أو الرسالة ، بدلا من العكس ؟

ويقول بعضهم : ان اختيار ابراهيم ، كان بداية مجرى تاريخى كبير فيه كل الخصائص اللازمة ، انتهى بالأحوال والظروف التى أدت الى مجىء « المخلص » وصلبه تكفيرا عن خطايا البشر . فالتخليص ، فى نظرهم ، عمل تاريخى ، زمكانى قام به الاله بالذات . ولا يمكن اقحام الزمكان بل يجوز ادخال معينات خاصة تحول مجراه الى الهدف المرغوب . وهذا ما فعله الله باختياره ابراهيم واليهود ذريته . بديهى أن هذا الرأى يدخل الاله فى التاريخ ، أى فى المجرى الكيانى الوحيد الذى أعطى للانسان مسرحا لحريته . ثم يدخله كى يجعل من البشر خلال الفين من السنين دمى يحركها ويدفع بها الى ما لا علم لها به ولا ارادة لها فيه . وما معنى تخليص لا يقوم فيه الانسان بدوره واعيا عاقلا ، مخيرا ، مدفوعا بضميره لوحده ، بل دمية لا كلمة لها ولا حساب ؟ (٢٥) .

ولقد ادعى البعض الآخر ، أن قطع يهوه عهدا على نفسه بمؤازرة وتفضيل ابراهيم ليس بالشىء الغريب اذا قورن بالعهود التى كانت تقطع فى ذلك العهد ، بين الملوك الكبار والأمراء المقطعين الذين كانوا

---

(٢٥) قد يقول المسيحى ان هذا التبرير ليس حجة منطقية ، تجادل ويجادل بها . بل وعظا عقائديا (Dogmatic) يستعين به من يشاء . وهذا طبعا قول فصل . الا أنه لا ينهى الحجة بل يسقط العرض والنقد فى آن واحد . وعليه يبقى اختيار ابراهيم عرفيا تعسفيا لا سبب له .

يقعون تحت حمايتهم (٢٦) . فالعهد ، أو الميثاق ذو الاتجاه الواحد ـ أى الذى يرتبط به المعاهد على القيام بواجبات ما دون أن يقابله المعاهد معه بارتباط مماثل ـ كان الشكل السائد لعـدد وافر من المعاهـــدات السياسية القديمة . وقد وصلت الينا نصوص المعاهدات التى أبرمها ملوك الحيثيين مع الامارات المقطعة ، يقع أغلبها فى ستة فصول :

(أ) المقدمة وهى تذكر اسم الملك المعاهد .

(ب) نبذة تاريخية تسرد كيف تغلب هذا الملك على المملكة المقطعة مما أدى الى هذه المعاهدة .

(ج) واجبات الملك أو الأمير المقطع ، أو المعاهد معه .

(د) طريقة تأمين نص المعاهدة والمحافظة عليها والمناسبات التى يجب أن تتلى فيها على الشعب .

(هـ) الشهود الذين حضروا ابرام المعاهدة .

(و) دعوات ومباركات وتهديدات ولعنات يجازى بها المقطع فى حالتى الاخلاص والخيانة للمعاهدة (٢٧) .

ويرى مندنهول أن الوصايا العشر صيغت بنفس الشكل وأنه يمكن اعتبارها معاهدة أبرمت بين يهوه والشعب اليهودى على غرار المعاهدات المعاصرة بين الملوك . فلا غرابة اذن على حد رأيه أن يتمثل اليهـود ميثاقهم مع الاله وكأنه معاهدة أو عقد ، ذو اتجاه واحد . فالوصايـا العشر تبدأ فعلا بذكر اسم الملك المعاهد أو المقطع ، أى يهوه الالـــه ،

---

(٢٦) انظر تفصيل ذلك مثلا فى :

Mendenhall, George E., Law and Covenant in Israel and the Ancient Near East, the Biblical Colloquium, 1955. Ibid, «Covenant forms in Israelite Tradition». The Biblical Archeologist, Vol. xvii, 1954, pp. 50-76.

(٢٧) انظر معاهدات الملوك الحيثيين فى كتاب (Ancient Near Eastern Texts) المذكور ص ٢٠١ – ٢٠٦ ، لا سيما معـاهدة الملكين سون مرسيليس ودوبى نسوب .

ثم تذكر التاريخ الذى أدى الى هذه المعاهدة الا وهو وعد يهوه لابراهيم واسحاق ويعقوب وتخليصه ذريتهم من يد فرعون وجنوده . ثم تأخذ الوصايا العشر بذكر واجبات المقطع أو المعاهد معه وهو شعب اسرائيل . وهذه هى الوصايا العشر بالذات . وتنتهى بأمر المقطع ببناء هيكل لحفظ التوراة ، أى نص المعاهدة ، فالوعد لمن ينته ويطيع والوعيد لمن لا يفعل (٢٨) .

والحق أن الشبه بين الوصايا العشر والمعاهدات القديمة حقيقة لاريب فيها . الا أنها ليست معاهدة ذات اتجاه واحد ، كما يدعى هنا ، وشتان ما بينها وبين العهد المقطوع لابراهيم . فالوصايا العشر معاهدة ذات اتجاه واحد من حيث الشكل فقط . أما من حيث الفحوى ، فهى لا شك معاهدة بكل ما فى هذه الكلمة من ثنائية الاتجاه . فمن جهة ، يأمر الاله يهوه بأن يكون هو الاله الوحيد بأن يعبد على طريق معين ويعمل بموجب شريعته – وهذا هو واجب المقطع ومن جهة أخرى يعد ، ويتوعد من يمتثل لهذه الأوامر – وهذا هو واجب المقطع . فكأن يهوه يقول : يا اسرائيل ، أنا أريدك أن تفعل كذا وكذا ، فان فعلت فانى مباركك بكذا ، وان لم تفعل فانى مجازيك بكذا . وليس من شك أن اسرائيل تقبل هذا الاعلان كاعلان الهى . ذلك أنه اعتبره نصا مقدسا . اذن ، يوجد هنا اتجاهان واجب على المعاهد وواجب على المعاهد معه .

وقد رأينا أن العهد الابراهيمى كما تمثلته التوراة ذو اتجاه واحد : لا ثنائية فيه . فمباركة يهوه لابراهيم قائمة مهما حصل . هى أزلية لن تتبدل .

ثانيا – لا تؤلف الوصايا العشر ميثاق ابراهيم أو بنى اسرائيل . والدعوى بأنها هى هذا الميثاق لا تقوم على برهان . فهى تطور لاحق ، لا بداية . وسببها على حد قولها ، هو هذا العهد اللاسببى الذى أعطاه

---

(٢٨) انظر نص الوصايا العشر فى سفر الخروج ، ٢٠ ، تتبعها تفاصيل الوصايا الحكمية فى ٢١ ، والأمر ببناء الهيكل فى ٢٥ والوعد والوعيد فى نهاية ٢٥ .

يهوه لابراهيم . فان كان التعاقد الأخلاقى ، القانونى مع الله هداية ، فان الله لم يعطها للبشر بل اختص بها شعب اسرائيل لأفضليته على البشر ، وذلك بالرغم من وجود مختارين – نوح مثلا – من قبل اسرائيل . فان دلت الوصايا العشر على شىء فهى تدل على غلو جديد عند اليهود والمسيحيين . ذلك أنهم تصوروا فيها أن الأخلاقية لا يدعى اليها الناس جميعا ، بل فقط أولئك المفضلين المختارين . كأن الأخلاق امتياز للممتازين فقط ، وواجباتها تقع عليهم دون غيرهم . فمن المؤكد أن عبادة يهوه وأوامره لا تلزم فى نظر اليهود ، غير اليهود انفسهم .

نستخلص من هذا البحث أن الاختيار الابراهيمى لا مبرر ولا علة له . وكونه بدون سبب يجعل منه أساسا صالحا لبناء العنصرية . فالعنصرية تقول : « أنا أفضل منك لأنى أنا » ، ولو جاءت بأى سبب معقول أو غير معقول ، حقيقى أو كاذب ، لفسدت العنصرية وأصبحت لا عنصرية . فهى تأتى ثمرها فقط طالما أن لا سبب موجود أو ممكن الوجود . « أنا أفضل منك لأنى أنا فحسب » . فلا عجب أن اتخذت الصهيونية اصطفاء ابراهيم ركنا أولا لها ، ولا عجب أن شيدت تفكيرها . كما فعل الدين اليهودى نفسه ، على أساس ميثاق ابراهيم ، ذى الاتجاه الواحد .

وهناك حجة أخرى تدل على وجود الصهيونية فى العصر البطريكى فى سفر التكوين . هى قصة نزول يعقوب وقبيلته فى شكيم ، أى نابلس ، عاصمة مملكة اسرائيل فيما بعد (٢٩) .

وخلاصة القصة هى أن يعقوب وقبيلته جاءوا الى شكيم مهاجرين فى القرن الثامن أو التاسع عشر . وقد كانت هناك هجرات الى أواسط فلسطين من الشرق والشمال فى ذلك العصر . فلا يستبعد أن تكون هجرة يعقوب المذكورة احداها . وقد دلت الآثار على أن شكيم – وهى تقع اليوم فى أراضى قرية بلاطة بجوار نابلس – هدمت وأحرقت فى تصديها لاحدى هذه الهجرات . وهذا أيضا قد يكون فعل يعقوب وقبيلته المذكورة

---

(٢٩) راجع القصة فى سفر التكوين : ٣٣ ، ٣٤ .

فى التوراة . وتؤكد آثار تل العمارنة ، أن حاكم منطقة شكيم أرسل يستنجد فرعون ليرسل له الزاد والرجال كى يعيد النظام والسلام اللذين حطمهما « العابيرو » ، أو البدو المهاجمون (٣٠) ، الذين عرفهم المؤرخون كقبيلة العبريين .

وفى شكيم ، استأجر يعقوب قطعة أرض من حامور ، ملك شكيم . بمئة قطعة . كى يقيم عليها مع قبيلته . وجاءت ابنة يعقوب ، دينا ، تزور نساء شكيم . فرآها أمير شكيم وأحبها وتزوج منها دون استئذان أهلها . وكانت دينا راضية عن ذلك . وعندما علم أهلها ، طالبوا بعودة الفتاة . فجاءهم الأمير والملك ، وطلبا منهم أن يزوجوه ابنتهم لأنه أحبها ولأنها تحبه ، وأعلنا أنهما على استعداد للتعويض مهما كلف الثمن . وعندئذ ، مكر أبناء يعقوب وطلبوا أن يختتن الأمير تمشيا مع عادات اليهود . ولم يرض أمير شكيم وأبوه بهذا الشرط فحسب ، بل راحوا يقنعون أهل شكيم بأن اليهود رجال خيار وأنهم أهل لهم واخوة ، وأن على جميع الشكيميين أن يختتنوا كى يصبحوا مع اليهود شعبا واحدا فيتزوجون بناتهم ويزوجونهم منهم ويسكنون جميعا اخوة فى أرض شكيم . وبعد أن اختتن الشكيميون وتوجعوا هجم أبناء يعقوب على المدينة وقتلوا جميع رجالها « وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما فى البيوت » (٣١) .

تدل هذه القصة على الحقائق الآتية :

ان ما حصل بين أمير شكيم ودينا ليس بالأمر الغريب ولا هو بالعار فالعادة المتبعة فى ذلك العصر تقول : اذا عاشر رجل فتاة غير متزوجة وجب عليه التزوج منها . فان فعل ، ودفع شيئا لذويها ، لا تقع عليه لومة لائم . وتقول التوراة : « اذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة ..

---

(٣٠) انظر هذه الرسائل فى : (Ancient Near Eastern Texts) المذكور ص ٤٨٣ ــ ٤٩٠ ، وراجع خبر اقتحام « العابيرو » لمدينة شكيم فى الخطاب رقم ٢٨٩ ص ٤٨٩ .

(٣١) سفر التكوين ٣٤ : ٢٩ .

فأمسكها واضطجع معها فوجدا ، يعطى الرجل الذى اضطجع معها لأب الفتاة خمسين من الفضة ، وتكون هى له زوجة » (٣٢) . وشكيم كان على استعداد للقيام بأحكام هذا القانون . الا أن الاسرائيليين طالبوا بأكثر مما يجيزه القانون . وطالبوا بذلك مكرا . أما الشكيميون ، فسروا لهذا المطلب بان تمحى الفوارق بين الناس وأكدوا استعدادهم لتقبل المهاجرين اخوة لهم فى وطنهم واعتبارهم كذلك فى كل شىء . لكن بنى اسرائيل ظنوا أن الشكيميين لن يمتثلوا لمثل هذا الطلب لأنهم عنصريون ، كالاسرائيليين .

وفوجىء الاسرائيليون باستجابة وتنفيذ شكيم لما طلبوا ... فباجرائهم هذا جعل الشكيميون أنفسهم اسرائليين . وهذا هو اثمهم الأكبر والذى لا يغتفر . أن يخسر الاسرائيليون ابنة فهذا أمر يسير . ومع هذا فهم كانوا سيعوضونه بالفضة وتزويج الابنة والحصول على الأرض والمنازل والتجارة والاستقرار . أما أن يسرئل الشكيميون أنفسهم ، أى يتهودوا ، فهذه جريمة بحق العنصر اليهودى لا تطاق ، ولا تعاقب الا بالقتل والابادة . والمبدأ العنصرى الذى يرتكز عليه واضح بين .

ويؤيد هذا ما ذكرته التوراة من جعل الاختتان علامة لازمة للعهد مع ابراهيم . فقالت : « أنا الله القدير .. اجعل عهدى بينى وبينك .. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر .. فيكون علامة عهد بينى وبينكم . فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا ... وأما الذكر الأغلف ... فتقطع تلك النفس من شعبها . انه قد نكث عهدى » (٣٣) .

ويعلق الحاخام هرتس على هذه الكلمات بقوله : « ان ولاء بنى اسرائيل للاختتان كنظام حيوى وأساسى فى الدين اليهودى واحتفاظهم به وتمسكهم به لا يعرف حدا . فاليهود رجالا ونساء ، كانوا دائما على استعداد لتضحية أرواحهم فى سبيله . فالشهداء المكابيون استشهدوا دفاعا عنه ، كما قال الكتاب المقدس فى سفر مكابيوس الأول ، ١ : ٦ . وتقبلت

---

(٣٢) سفر التثنية ٢٢ : ٢٨ .

(٣٣) سفر التكوين ١٧ : ١ — ١٤ .

اليهوديات والأمهات اليهوديات الموت على يد الملك انطيوخس عندما أمرن بعدم ختان أولادهن . وكذلك فى أيام اضطهاد الملك هادريان ... والتفتيش المسيحى وكل اضطهاد آخر استهدف اقتلاع الدين اليهودى . كان بنو اسرائيل دائما مستعدين لفدية هذا النظام بأرواحهم » (٣٤) .

ولكن الختان لم يكن فى يوم من الأيام خاصا باليهود . فمن المعروف أن شعوبا كثيرة كانت تمارس هذه العادة فى العصور السالفة . فالجديد فى الأمر اذن ليس مجرد الاختتان المادى . بل معانى العنصرية التى اضيفت على الختان . فاليهودى لا يقدم روحه فدية للاختتان فحسب بل فدية المختارية التى ركزها فى الإختتان . ولا غرابة فى أن سعى اليهود لتركيز العنصرية – وهى طريقة تفكير – فى شىء مادى ، خارجى يسهل على العوام فهمه وتنفيذه . فالتفكير العنصرى مناقض للفطرة ، وليس التمسك به وتطبيقه فى جميع الأحوال بالشىء الهين .

ولا تخلو التوراة من التفكير المناقض للعنصرية ، مع أنها مليئة بالعنصرية ومع أن العنصرية هى طابعها العام ومبدأها الأول والأخير ... فاللاعنصرية مقتصرة على الأحكام التى لا تتنافى مع القانون الأخلاقى ، وعلى تمثل الميثاق كانه ميثاق ، لا عهد ، وعلى دعوة اليهود المنحرفين فى عبادتهم للرجوع الى التوحيد . الا أنها ان وجدت ، تجدها مضافا اليها شيئا من العنصرية مما يجعل قراءة التوراة قراءة وثيقة حرفت وبدلت بالفعل .

* * *

٤ – هل من نزعة مغايرة للصهيونية فى العصر البطريكى ؟

من المسلم به أن خلاصة ما تقوله التوراة عن العصر البطريكى هى العنصرية . وقد ركزت التوراة هذه العنصرية فى اصطفاء يهوه لابراهيم اصطفاء بدون سبب ، وتمثلت هذا الاصطفاء ، كميثاق أو عقد ذى اتجاه واحد سمته « الميعاد » وحصرته « فى اللحم » كما تقول التوراة : بالباسها عادة الختان قالبا دينيا .

---

(٣٤) انظر : (Pentateuch and Haftorahs) المذكور ، ص ٥٨ – ٥٩ .

وكانت العنصرية هذه سببا فى عدم انصهار العبريين فى ديار الشام ونزوحهم عنها الى مصر ، وتنبئنا التوراة بهذا عن طريق سرد ما فعله أبناء يعقوب فى شكيم مثلا . فطبيعى أنهم كلما حاولوا الاستقرار فى مكان ما ، جابهوا أمر الاندماج مع مضيفيهم ، وطبيعى أنهم كلما نفروا من هذا الاندماج أن ينفر مضيفوهم منهم ويحملوهم على الرحيل ، ولعل أيام المجاعة التى تذكرها التوراة كسابقة لرحلة بنى يعقوب الى مصر ليست الا عـدم استقرارهـم فى أى مكـان وملاحقة الفلاحين لهـــم لترحيلهم (٣٥) .

ولكن مضيفى اليهود فى فلسطين فى العصر البطريكى ، لا سيما فى الحدود الشرقية والشمالية منها ، لم يكونوا سـوى مهـاجرين من نفس المكان ، أى من الصحراء ـ سبقوا العبريين أو المهاجرين الجـــدد بجيل أو أكثر . وقد تم بالفعل اندماج معظم هؤلاء المهاجرين فى فلسطين ما عدا قسم واحد منهم ، هو أولئك الذين تابعوا سيرهم الى مصر ، فلا شك اذن أن من لم يستقر فى فلسطين واضطر لقطع صحراء أخرى فى سبيل الاستقرار ، فعـل ذلك لعـدم قابليته للاندماج . وهذه هى العنصرية وعلى هذا الاعتبار يتوقف قولنا بأن المهاجرين الى مصر كانوا من العنصريين ، وبالرغم من هذا ، لا يمكن الجزم بأنه لم يكن بين هؤلاء المهاجرين من يغايرهم بعض الشىء فى المبدأ . وكل ما نستطيع تأكيده ، هو أن أكثرية المستقرين فى فلسطين كانوا حنفاء ، متآخين مع الناس ، بينما كان طابع المهاجرين الى مصر الغالب هو طابع العنصرية .

وتمثل التوراة هذا النزوح عن فلسطين كهجرة أبناء يعقوب ـ وليس أبناء يعقوب الا آباء القبائل اليهودية ـ ويجب علينا اتخاذ أسماء الرجال أسماء للقبائل كما هو الواقع التاريخى ، فنفهم تنقلات الرجـال كأنها تنقلات الشعوب . ويعرف التاريخ وتعترف التوراة بأن هذه القبائل لم تندمج فى المحيط المصرى رغم تكريم المصريين لها ، ورغم ما حصلت

(٣٥) سفر التكوين ، ٤٢ : ١

عليه من نفوذ وجاه . فقد فضلت أن تنفرد بنفسها وتتميز عن مضيفيها المصريين الى أن جلب ذلك عليها الاضطهاد والطرد . فلا شك اذن من أن العنصرية بقيت الطابع الغالب للكيان اليهودى فى مصر .

الا أن هناك دلائل كثيرة تدل على أن العنصرية لم تكن المكون الوحيد للأيديولوجية العبرية ، وان كانت المكون الأساسى ، ولو كانت المكون الوحيد لاستحال علينا تفسير عدد من الحقائق الثابتة .

من هذه الحقائق ، التأثير العظيم الذى أثره العبريون فى مصر فى الدين الفرعونى القديم . فالعصر الوسيط ، وهو العصر الذى يقع بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٦٠٠ قبل الميلاد ، شهد دخول أعداد وفيرة من المهاجرين الصحراويين الى مصر . وهذا هو نفس العصر الذى هاجر فيه أبناء يعقوب أو قبائل اسرائيل الى مصر . وكان من جراء هذه الهجرات أن قامت السلالات المعروفة بالهكسوس على عرش مصر . ومع أن المصريين استطاعوا أن يطردوا هؤلاء الحكام لأنهم اعتبروهم أجانب عليهم ، بقى المهاجرون فى مصر يعملون فكريا فى الروح المصرية . وبعد ذلك بقرنين قامت ثورة أخناتون الشهيرة على الدين الفرعونى القديم ونجحت . بل استولت على الدولة نفسها ونقلت عاصمتها الى مدينة آتون أو ايختاتون التى شيدتها عناصر الدين الجديد على طريقة تقرب جدا من التوحيد وان لم يكن توحيدها توحيدا صافيا . وانقلب الحكم مرة ثانية وجاء رمسيس الثانى سنة ١٢٩٠ ق.م يعيد الدين الفرعونى الى ما كان عليه ، الى أن وقع الخروج سنة ١٢٨٠ ق.م .

وليس توافق الأحداث فى الدين المصرى مع هجرات الصحراويين من عبريين وغيرهم الى مصر مجرد صدفة . فلا بد من أن يكونوا قدموا للمصريين دينا جديدا ، وأدخلوا جماعات كبيرة من المصريين فيه ولا بد أن يكون هذا الدين الجديد ، أو النظرة الى الحياة ، دين لا يختص نفسه بشعب دون شعب . لا بد له أن يكون دينا « للتصدير » ، أى دينا قابلا لأن يصبح دين الغير ، دين العالم والآخرين . أو بعبارة أدق ، يترتب عليه أن يكون دينا حنيفيا ، لا عنصريا .

وقد تكون الحنيفية تنطوى على عقائد مهمة أخرى ، وقد تكون حنيفية عبرية ، تعتمد الدين العبرى ، دون أن توافقه على العنصرية • فكل ما يعنينا من أمرها فى هذا المقام ، هو مغايرتها للنزعة العنصرية ، والدين الفرعونى بطبيعة الحال • ولا بد من أن تكون ذات أثر فعال فى حياة المهاجرين الى مصر • فلولاها ، لاستحال علينا تفسير التاريخ المصرى ، خلال هذه القرون الستة ، أى بين سنة ١٨٠٠ ، ١٢٠٠ ق•م • ونحن نعرف أيضا أن آثارا عربية قديمة جدا وجدت فى مصر من الألفين الرابع والخامس • ولا بد أن يكون قد رافق هذه الآثار السومرية والبابلية والأكادية شىء من الأثر المعنوى فى الفكر والدين • الا أنه لم يكتب لهذا الأثر أن يصبح شيئا الا بعد هجرات القرن الثامن والتاسع عشر • فلا شك أنه منذ القديم كان شىء ما مغاير للدين الفرعونى ينمو فى مصر الى أن انفجر فى اعتلاء الهكسوس العرش الفرعونى ثم عاد وانفجر مرة ثانية فى ثورة أخناتون • ومن المؤكد أن هذا الشىء جاء مصر مع المهاجرين من الصحراء الشرقية ، أى من الجزيرة العربية وديار الشام •

والقضية ليست فقط تفسير التاريخ السابق للخروج ، فهنالك تاريخ ما بعد الخروج لا يرجى له تفسير لو لم تكن الحنيفية ، بمعنى اللاعنصرية ، حقيقة واقعة فى فلسفة الذين خرجوا من مصر بقيادة موسى •

فمن المعروف أن « الخارجين » مع موسى اندمجوا اندماجا كليا مع قبائل سينا ومدين وشمال الجزيرة الغربى • ومن المعروف أنهم تصاهروا معهم وصاغوا معا بلورة جديدة لدينهم احتفظت بعدد كبير من الخصائص السينائية والمدينية ، أهمها الاله نفسه يهوه ، اله الجبل الذى فى رأسه نار (٣٦) • وقد تألفت من هذه القبائل العديدة محالفة شاملة اختطت لنفسها الزحف فى اتجاه فلسطين • ولم تكن المحالفات فى

---

(٣٦) قال يهوه « حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل • فقال موسى لله : ها أنا آتى الى بنى اسرائيل وأقول لهم اله آبائكم أرسلنى اليكم فاذا قالوا لى ما اسمه فماذا أقولهم لهم ؟ فقال =

ذاك العهد مجرد اتفاقات بين الحكومات ، بل كانت انصهار القوم فى القوم • ولا يمكن قط أن يحصل مثل هذا الانصهار بين العبريين وهؤلاء الأقوام الا اذا افترضنا فيهم نزعة أخرى غير نزعة العنصرية • فالعنصرية لا تسمح بمثل هذا الانصهار • فلا يجوز أن يحدث ذلك الا اذا افترضنا وجود الحنيفية •

ولكن يجب علينا أن لا نغالى فنقول ان العبريين الذين قادهم موسى كانوا كلهم حنفاء • فالواقع هو أنه كان هنالك نزعتان متصارعتان فى شعب واحد تتغلب احداهما تارة ، والأخرى تارة • وكذلك ، يجب علينا افتراض وجود عوامل مشتركة بين هذه الأقوام ، لولاها لما اتفقوا • وهذا ما يحفظ للعبريين المصريين طابعهم الصحراوى السامى والعربى الأصيل • ولنذكر دائما أن العنصرية تتنكر لأى اتفاق لا يكون فيه الأمر أمر سائد ومسود ، قاهر ومقهور وانها دائبة على الالحاح « أنا أفضل منك لأنى أنا » •

فالحقيقة التاريخية اذن ، هى أن كلا العنصرية والحنيفية كانتا قويتين فى عصر البطاركة ، وأن العبريين من المهاجرين ، انفردوا بأن كانت لهم النزعتان معا بينما لا نجد العنصرية فى تراث أى قوم سامى آخر فهم جميعا حنيفيون •

وليست الأسفار الخمسة وما يسمى باسرائيليات القرآن الكريم الا بلورتين مختلفتين لتاريخ واحد وحقائق واحدة من وجهتى نظر العنصرية والحنيفية • فالأحداث التاريخية من هجرة ابراهيم وأولاده من العراق الجنوبى الى ديار الشام ومنها الى مصر ومكة ، واختباراتهم فى مصر ثم اضطهاد فرعون لهم ، وخروجهم ودخولهم أرض فلسطين بعد هبوط الوحى على موسى فى طور سيناء • كل هذه حقائق تاريخية لا مجال اليوم للشك فيها ، الا أن الأسفار الخمسة قدمت لنا هذا التاريخ

= الله لموسى يهوه الذى يهوه (أى الكائن الذى يكون حسب بعض التفسيرات) وقال : هكذا تقول لبنى اسرائيل يهوه •• أرسلنى اليكم » (سفر الخروج ٣ : ١٢ : ١٤) •

من حيث رايته العنصرية ، فجعلت لنفسها فيه مركز الثقل . أما القرآن الكريم ، وهو صوت الحق ، فقد رأى هذه الأحداث من حيث رأتها الحنيفية الأخلاقية العقلية العالمية ، فجعلت لهذه الفلسفة مركز الثقل فى هذا التاريخ .

وأكثر ما يهمنا من الأمر هنا هو العنصرية . فعلينا اذن أن نبحث عن تفهمها للتاريخ .

* * *

٥ ــ ما هى حقائق عصر الخروج ، وكيف تمثلتها الصهيونية ؟

قلنا ان العبريين فى مصر اختصوا بنزعتين مختلفتين ، العنصرية والحنيفية . ويعقل أن العنصرية امتنعت عن مؤاخاة المصريين فنشأ الاضطهاد وأدى الى الخروج . أما الحنيفية ، فكيف لها أن تؤدى الى الخروج ؟ ولقد افترضنا خروج الحنيفيين مع العنصريين ؟

أن اختلاف الحنيفيين مع المصريين أكثر أهمية من اختلاف العنصريين معهم وأصعب فهما . فالتفكير والسلوك العنصرى أمرهما يسير وكلاهما قريب جدا من التصادم الذى لا بد وأن يؤدى اما الى سيادته أو قهره . فالخروج كحل للخلاف العنصرى ــ المصرى حسن مسالم ، بعيد الوقوع عندما يتحدى الضيف المضيف بفكرة « أنا أفضل منك لأنى أنا » .

أما عند الحنيفية المسالمة ، المؤاخية العقلية ، التى تدعو الى اقامة أخوة عالمية دون تمييز ، تحت القانون الأخلاقى ، فمن الأقرب أن يتجه الفكر فيها الى الخروج كحل يرضى الطرفين معا اذا حصل التصادم بينها وبين الفرعونية .

فالمنطق الذى أقنع رمسيس الثانى بالسماح للعبريين بالخروج لا بد وأن يكون قريبا من هذا ، ولربما كان تغيير فكره ، ولحاقه بالعبريين ليرجعهم الى مصر ناتجا عن اعتبار الاذن بالخروج مخرجا لا للحنفيين فحسب بل للعنصريين الذين لا يستحقون مثل هذا الحل . فالحنيفية ،

لا بد وأن يكون قد تقدمت لفرعون بمشروعها ، بفكرتها عن وحدة العالم والبشر ، سائلة ، أن يسمح لها بمتابعة دعوتها فى أرض مصر • ولما لم يسمح لها فضلت أن تخرج الى الشرق حيث يشاركها أقرباؤها وذووها نفس الايمان ونفس الفلسفة • والصلة بينهما وبين جيرانها فى الشرق كانت لا شك قائمة لم تنقطع • وهى الحقيقة التى يفترضها نزول موسى فى مدين ومصاهرته لهم بل ارتباطه بهم بصلة القربى عن طريق أمه • فلا شك أن الخارجين كانوا على موعد مع المدينيين ، وكانت تطورات الموقف الطويلة معروفة لديهم يترقبونها عن كثب

أما العنصرية فقد تمثلت خروج العبريين كأنه مجرد تلبية لنداء يهوه بالخروج (٣٧) • فهى كأنها تقول : أريد أن أخرج لأنى لا أرغب فى البقاء فى مهجر • بل تؤكد لنا التوراة أن من أسباب الخروج ما كان يتطلع اليه العبريون من اغتصاب لأرض « الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليوسيين » (٣٨) • فحجة التوراة أن يهوه أخرجهم من مصر ليدخلهم فى فلسطين • وليست المسألة فى نظر العنصرية مسألة مبادىء أو أخلاق • هى على العكس تماما – شر يداوى بشر أسوأ منه – شر اضطهاد يداوى بشر اغتصاب أرض وتقتيل أهلها • ولا تتورع العنصرية عن النسبة لله عز وجل بأنه أمر العبريين بالسرقة من المصريين غداة الخروج • فهى تجعل التوراة تقول : « فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين • بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » (٣٩) •

وكذلك تمثلت العنصرية رحلة موسى الأولى الى سيناء وزواجه من

---

(٣٧) « تدخل أنت وشيوخ بنى اسرائيل الى ملك مصر وتقولون له الرب اله العبرانيين التقانا ••• انى قد افتقدتكم أصعدكم من مذلة مصر الى أرض الكنعانيين الى أرض تفيض لبنا وعسلا »

(٣٨) المرجع السابق ٣ – ١٧ • (٣٩) نفس المرجع •

صفورة ، ابنة يثرون ، كاهن مدين وشيخها ، لا كأنها رحلة استكشافية ، غايتها التقرب من أهل مدين والتشاور معهم حول خروج العبريين المنتظر والتحضير له ، بل تربطها ربطا سببيا بقتل موسى ناظرا مصريا بعد أن « التفت الى هنا وهناك ورأى أن ليس أحدا » (٤٠) — أى بالخفية ، ثم تدعى أنه هرب الى مدين خشية من الجزاء القانونى لجريمته . والقضية ليست عما اذا قتل موسى بالفعل أو لم يقتل . لقد قال لنا القرآن الكريم أنه قتل ثم استغفر فغفر له . بل كيف تتمثل العنصرية هذا الحدث . وهى ، بنسبتها سفر موسى الى هذا السبب غير الخلقى ، تؤكد أن لا أخلاقية البتة لكل هذا التاريخ الذى تسرده . فهو كله فى نظرها فعل الله غير المسبب ، وأساسه كله كون العبريين شعب الله المحبب اليه والذى أقطعه عهده الأزلى . فالله الذى له ملك السموات والأرض « افتقد » شعبه ، وأراد أن يدخله أرض الغير ويملكه اياها ، فأمره أن يسلب مضيفيه ونزلاء بيته ويهرب الى أرض الميعاد .

وعلى كل حال خرج العبريون من مصر بقيادة موسى ونجوا من فرعون . وكان ذلك حوالى سنة ١٢٨٠ ق.م .

وعلى اثر وصولهم الى سيناء ومدين ، تآلفوا وتصاهروا وتعاهدوا مع أهلها (٤١) . ونتج عن هذا التآلف ما يسميه علماء التوراة بالحلف القبلى وهو حلف القبائل العبرية مع جميع القبائل التى كانت تسكن

---

(٤٠) « تدخل أنت وشيوخ بنى اسرائيل الى ملك مصر وتقولون له ، الرب اله العبرانيين التقانا .. انى قد افتقدتكم ... أصعدكم من مذلة مصر الى أرض الكنعانيين ... الى أرض تفيض لبنا وعسلا .... » سفر الخروج ، ٣ : ١٢ .

(٤١) راجع ذلك فى Bowman, R.A. «Arameans, Aramic and the Bible, » Journal of Near Eastern Studies, VII, 1948. pp. 83–97 ; Dupont Sommer, A., Les Araméens, A. Maisonnouve. Paris, 1949 ; Kupper, J.R. Les nomades en Mèsopotamie au temps des rois de Mari, Société d'éditions Des belles Lettres, Paris 1957.

شمال غربى الجزيرة العربية ، جنوب فلسطين ، وصحراء سيناء ، وقد ذكرنا من قبل أن الذين هاجروا الى مصر لم يكونوا الا عددا ضئيلا من المهاجرين العرب من الجزيرة والعراق · فالذين لم يهاجروا الى مصر ، لا شك تبقوا فى ديار الشام وعلى تخوم الصحراء بين الشام ومصر · فهم جميعا اذن من أصل واحد وثقافة واحدة ولهم تراث واحد ، مع العلم بأن هنالك درجات متفاوتة من التطبع بالبيئة الكنعانية ، أو حتى بالبيئة الصحراوية الجديدة التى نزلوا فيها (٤٢) ·

ويقول علماء اللاهوت ان الدين كان أساس الحلف القبلى ، ظانين أن موسى جاء بالدين والشريعة من السماء وأن هذه القبائل التفت حول الدين الجديد فتآلفت (٤٣) · وهذا طبعا رأى ساذج ، يمليه الايمان بأن التوراة هذه هى وحى الهى صادق · اذ لا يعقل أن يأتى موسى بدين جديد وأن يتقبله أضعاف أضعاف ذويه فى بلاد غير بلاده بهذه السرعة ، وبدون أدنى صراع أو احتكاك · وطالما أن الحقيقة الأكيدة هى أن القبائل تآلفت وتقبلت العنوان الجديد المعبر عنها ، فلا بد من أن يكون الدين الذى أتى به موسى غير مختلف عن دينها الذى كانت تدين به · وعلى هذا تدل براهين كثيرة ·

---

(٤٢) راجع مثلا الشعوب والقبائل التى تسميها التوراة فى سفر صموئيل الأول ٢٧ : ١٠ و ٣٠ : ٢٩ ، وسفر العدد ، ١٤ : ١٤ وما يليه وسفر العدد ٢١ : ١ — ٣ ، وسفر القضاة ، ١ : ١٦ وما يليه ، فهى جميعا دخلت فى تكوين الكيان العبرى · وتقول التوراة انه « صعد معهم (أى مع العبريين) لفيف كثير أيضا » (سفر الخروج ، ١٢ : ٣٨ وسفر العدد ، ١١ : ٤) وأن بينهم كان المدينيون (سفر العدد ، ١٠ : ٣٢) وسفر القضاة ، ١ : ١٦ و ٤ : ١١ وعمالقة النقب (صموئيل الأول ، ١٥ : ٦) والكالبيون (يشوع ١٤ : ١٣) والقينيون والأدوميون (قضاة ، ١ — ١١ — ١٥) ·

(٤٣) عبر عن هذا الرأى تعبيرا مثاليا فى كتاب
Bright, John, A History of Israel, Som Press, London, 1960. p. 1–8.

وأهم هذه البراهين اثنان : **الأول** ، هو أن الاله يهوه لم يكـــن معروفا فى مصر • ولم يكن العبريون يعرفونه قبل خروجهم الى سيناء • لنذكر بهذه المناسبة ، مرة أخرى ، أن موسى سأل الله : ما عساى أقول لقومى **عمن أرسلنى ؟ فأجابه الله** : قل لهم ان أباهم أرسلك • قال موسى : واذا قالوا لى ما اسمه فماذا أقول لهم ؟ (٤٤) عندئذ فقط نطق الالـه باسمه « يهوه » لأول مرة • ومن المعروف أن « يهوه هذا هو اله الجبل الذى كان يعبده السينائيون والمدينيون لأن الجبل المعنى هو جبل حوريب فى سينا » (٤٥) **أما معنى كلمة يهوه** « الكائن الذى يكون » ، فهى احدى الصفات التى كانت تطلق على آمون رع وعلى آتون من بعده • ولعل فى هذا ما **يدلنا على الوحدة العميقة** بين اله الساميين واله الحركة السامية فى مصر الفرعونية •

ثانيا : **ان الشريعة التى جاء بها موسى** ، **أو** بالأحرى التى نسبت الى موسى لم **تختلف فى الجوهر عن القوانين** القبلية التى كان الساميون يقيمونها فى **ذلك العهد** • **وان اختلفت** عنها اطلاقا فهى تختلف من حيث الأحكام **العنصرية فقط** • **وأية مقارنة بين** هذه الأحكام وأحكام لوحـات رأس شمرا أو تل الحريرى تكشف هذه الحقيقة (٤٦) • ولكن اذا كان

---

(٤٤) سفر الخروج ، ٣ : ١٢ – ١٤ •

(٤٥) راجع Murtonen, A., A Philological and Literary Treatise on the Old Testament Divine Names, Societas Orientalis Fennica, Helsinki, 1952.

(٤٦) ألف فى هذا الموضوع عدد كبير من الأبحاث • انظر مثلا : Unger, M.F., Israel and the Arameans of Damascus, James Clarke & Company, London, 1957 ; Parrot, A. Nineveh and the Old Testament, S.C.M. Press, London, 1956 ; Pope. M.H. El in Ugarithic Texts, Vetus Testamentum, Supplement, Vol. II. 1955. pp. 2099.

B.N., L'èpithète divin Jabué Sela'ot, étude philologique historique et exégétique, Desclée, de Brouwer, Bruges. 1947.

الأمر كذلك ، فما الجديد اذن فى هذا الحلف القبلى ، وما كان الداعى لقيامه ؟

لا شك أن شيئا ما دينيا قد توحد . الا أنه لم يكن توحيدا فى الجوهر لأن هذه الوحدة الجوهرية قديمة ، والذى حصل هو أن علماء هذه القبائل اجتمعوا وأجمعوا على اعلان ما تبينوه من صفات الله الذى كانوا يعبدونه . فأخذ الدين المعلن عنه هوية اله مدين وصفات آتون ومركز حوريب (الجبل) وأخذت شريعته الجديدة القوانين القبلية المتبعة فى الصحراء وما اقتبسه المهاجرون من عادات وشرائع كنعان ومصر . وليست هذه كلها بالشىء الثورى الجديد . فما الذى بعث فى هذه القبائل الروح الجديدة التى ميزتهم فى هذا العصر ؟

الجواب هو زعامة العبريين . لقد جاء العبريون بالاندفاع والنشاط والحماس والتصميم والارادة . فكانت لهم الزعامة . وهذا طبيعى . لقد كان ساكنو الصحراء مستقرين فى أماكنهم ، راضين عن معيشتهم بعض الرضا على الأقل . أما العبريون فلقد قاسوا ما قاسوه ونجوا من فرعون بأعجوبة . وكانوا قد اعتادوا العيش فى أراضى مصر الغنية ، فنشأوا على الرخاء والفلاحة . فكيف لهم أن يرضوا بحياة البادية ، بحرها وبردها وجوعها وعطشها وفقرها وقفرها ؟ وقد أخذوا يتبرمون ويحتجون لموسى قائلين : « هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية ؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر . أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين : كف عنا فنخدم المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية » (٤٧) .

اذن ، كان العبريون يتطلعون الى حياة أفضل من حياة البادية . فهم لن يستطيعوا الاقامة فى الصحراء ولا بد لهم من الاندفاع تجاه وطن أفضل ، يعيد لهم الرخاء المصرى المفقود . ولن يستطيعوا العودة الى

---

(٤٧) سفر الخروج ، ١٤ : ١١ — ١٢ ، ١٦ : ٧ — ١٢ ، ١٧ : ٢ — ٤ ، الخ .

مصر بعد أن هاجروا منها متلبسين بجرم السلب والنهب ٠ ففرعـــون وجنوده بانتظارهم اذا عادوا أو تراجعوا فلا عجب اذن أن حرك العبريون سواء أكانوا عنصريين أو حنيفيين ، القبائل القانعة بالكفاف من العيش للقيام بمغامرات جديدة ٠ ومن الطبيعى أيضا أن تستجيب هذه القبائل للحماس العبرى المتدفق ٠ فاستقرارها فى سيناء ومدين والنقب لم يكن قديما ، وكذلك ، لم تكن قد استقرت بالمعنى الكامل ٠ فحياة الصحراء بطبيعتها سهلة للتنقل والرحيل ٠ وطبيعى أيضا ، أن تتزعم القبائـــل العبرية هذا الحلف القبلى ، فقد كانت مستميتة فى سبيل ايجاد مستقر لهـــا ٠

وتقدمت قوى الحلف القبلى نحو فلسطين واحتلت جنوب النقب ونزلت فى مدينة قادش التى تقع جنوب بئر السبع وبقيت فيها زهـاء خمسين سنة وحاولت هذه القوى أن تشق طريقها الى الشمال فاشتبكت مع العمالقة فى معركة حرمة (٤٨) ٠ الا أن هؤلاء أسقطوا القوى القبلية بالسيف « وخربوهم وحطموهم » ولم تستطع قوى الحلف القبلى التقدم رغم الخمسين سنة التى قضتها فى قادش ٠

وجاء جيل جديد أكثر حيلة وأشد دهاء ٠ وتحول نظره عن جنوب فلسطين حيث يسكن العمالقة فى الجنوب الوسطى ، والفلسطينيون فى الجنوب الغربى ، والكنعانيين فى الجنوب الشرقى ، وكلهم أقوياء ومدنهم « محصنة الى السماء » الى الشرق ، الى شرقى الأردن حيث يسكن أبناء أنعم من المهاجرين الذين غادروا الصحراء أو العراق مع العبرانيين قبل بضع مئات من السنين ، وحيث لم تتبدل الحياة كثيرا عما كانت عليه فى الصحراء ٠ وكـان فى شرقى الأردن أربعة ممالك : أدوم ومـوآب وحشبون وجلعاد ٠ وكانت هذه الممالك تقع الواحدة شمالى الأخـــرى فكانت آدوم فى شرقى النقب وجلعاد فى منطقة أربد وحوران ٠

فقام الحلف القبلى بالتوجه الى حشبون بدون التعرض لآدوم وموآب

---

(٤٨) سفر العدد ، ١٤ : ٤٠ ــ ٤٥ ٠

وآمون ، أى بالوصول اليها عبر الصحراء الشرقية • ولا بد أن يكـــون هنالك اتفاق سابق بين زعماء الحلف وزعماء حشبون • فما كادت قوى الحلف تصل الى حشبون حتى انضم اليها معظم الحشبونيين ، وأصبحت بذلك حشبون قاعدة للحلف • ومن هنا أخذت تتوسع شيئا فشيئا • الا أن مركز الحلف بقى فى شرقى الأردن أكثر من مائة سنة مما جعل شرقى الأردن مركزا للحلف القبلى فى تفكير العبريين اللاحق •

وانضمت بعد ذلك قوى جديدة أخرى للحلف مما جعل الحلف يسيطر على معظم الأراضى الجبلية شرقى الأردن • وتم بسط هـــذه السيطرة وامتداد قوى الحلف القبلى بدون معارك • وأول منطقة من فلسطين انضمت الى الحلف القبلى هى المنطقة الوسطى ، أى منطقة السامرة ، وذلك لأن سكانها كـــانوا يؤلفون الحلف الجبعونى الذى هـــادن الحلف القبلى قبل أن يطأ أرض فلسطين • وسـبب هـــذه المهادنة شعور الأخوة الذى حمله أهل هذه المنطقة للمهاجرين الجدد • ويرجع شعورهم الأخوى هذا الى حداثة استقرارهم فى المنطقة • اذ كانت المنطقة الوسطى فى فلسطين آخر منطقة نزل فيها المهاجرون الآراميون — وهم « العابيرو » الذين حدثتنا عنهم لوحات تل العمارنة • فبينما نزل الآراميون فى ديار الشام فى القرن العشرين (ق٠م٠) واستمرت هجرتهم الى القرن السابع عشر ، جاء الهكسوس المطرودون من مصر فى القرن السادس عشر ، الا أن العابيرو احتلوا شكيم فى القرن الرابع عشر • وهذا ما يفسر اتصالهـم بالحلف القبلى ووحدة الشعور واللغة والعادات والأيديولوجيا بينهم ، مما أدى الى مهادنتهم والتحالف معهم •

هذه الحقيقة التى لا ريب فيها ، تمثلها العنصرية على الشـــكل الآتى : لما سمع أهل جيعون بالمصير الذى لاقته أريحا على يد العبريين • هرعوا الى العبريين واستحلفوهم بيهوه أن يعاهدوهم على أن لا يقتلوهم وأن يكونوا لهم ولآلهتهم عبيدا • فقطع لهم قائد العبريين عهدا بأن يأمن لهم حياتهم وأملاكهم ضد رأى مرؤوسيه ، وتزيد التوراة أن العبريين ندموا

على اعطائهم هذا العهد ولعنوهم (٤٩) . وهذا برهان على أن كتابة هذا الاصحاح من التوراة جاءت أو حرفت بعد وقوع هذه الحوادث بزمن طويل . وتدل التوراة بنصها هذا على تعمد الخطأ . فالمنطقة الوسطى انضمت الى الحلف القبلى قبل سقوط أريحا بمائة وخمسين سنة . ولا شك أنها .. انضمت انضماما . وكان يمكنها أن تحارب حربا طويلة الأمد لانها لم تكن أضعف من جيرانها . ومع هذا تأبى العنصرية أن يحالفها أحد . فهى تسمح للغير فقط بأن يخاطبها بكلمة « عبيدكم نحن » (٥٠)

وبانضمام المنطقة الوسطى من فلسطين للحلف القبلى تفتحت المناطق المجاورة لهم . لابد أن هنالك مدنا ومناطق اضطرت قوى الحلف الى دخولها عنوة ، مثل أريحا ومثل المناطق الغربية فى فلسطين ما بين عكا ويافا . وتدل الآثار على أن معارك عنيفة دارت فى مدن فلسطين الغربية فى القرن الحادى عشر . الا أن معظم ما كسبه الحلف القبلى انضم اليه بمحض اختياره بدون حرب . ومع هذا فقد بقيت مناطق عديدة واسعة خارجة عن حكم الحلف القبلى الى أيام داوود بعد سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد . فمنها آدوم وموآب وعمون ، وباشان فى شرقى الأردن ومنها الساحل الجنوبى الفلسطينى الذى كان يسكنه الفلسطينيون ومنها النقب الجنوبى ومنها الساحل شمال حيفا ، ومنها — وهذا هو الأهم — منطقة أورشليم . ففكرة أن العبريين دخلوا لوحدهم الى فلسطين ، وأنهم فتحوها عنوة وقهرا لأن الههم كان يمشى أمامهم « نارا آكلة » ، وفكرة أنهم أتوا على جميع من فيها من رجال وحيوانات وشجر ، وأن كل ذلك تم فى فترة وجيزة من حياة قائد عبرى واحد هو يشوع — كل هذه الأفكار اختلاق وافتراء ، لا تمت الى التاريخ بصلة (٥١) .

(٤٩) يشوع ، ٩ : ١ — ٢٧ .
(٥٠) يشوع ٩ : ٩ — ١١ .
(٥١) لقد أثبت ذلك اثباتا علميا العالمان فون راد والت . راجع :
Von rad, G., Der Heilige Kreig im Alten Israel, Zurich, 1951, Zwingli-Verlag ;

Alt, A., Kleine Schriften Zur Geschichte des Volkes Israel, 2. Vols C.H. Bech'sche Verlagsbuchhandlung, Munich, 1953.

الا أن هذه الافتراءات لها معنى كبير · فهى تدل على العقلية العنصرية اللاحقة وتكشف عن تمثلها لأحداث الماضى ، فالصورة التى ترسمها لنا ليست الحقيقة التاريخية ، وهى تعرف هذا ، بل هى ما تصبو روحها الى أن يكون التاريخ ·

٦ ــ كيف نشأت المملكة الداوودية ، وما أثرها على الدين اليهودى ؟

كما أن انشاء الحلف القبلى أدى الى ادماج التراثات الدينية لجميع القبائل المتحالفة ، أدى دخول هذا الحلف الى فلسطين وانضمام سكان فلسطين من عابيرو ومن آراميين ومن كنعانيين اختلفت تراثاتهم نوعا ما عن التراث الذى جاء به الحلف القبلى ، الى ادماج التراث الكنعانى بالتراث الحلفى ·

وأول ما أخذ الحلف عن الكنعانيين لغتهم ، وهى اللغة العبرية · واللغة العبرية لهجة من لهجات الآرامية وهى اللغة التى كان يتكلمها المهاجرون الصحراويون بين القرن العشرين والسادس عشر قبل الميلاد · والعبرية لغة متفرعة عن اللغة الأم ، وهى العربية · وقد دخلت الى اللغة عناصر محلية خلال القرون الأربعة فأصبحت أكثر اختلافا من اللغة العربية · ومن المؤكد أن الحلف القبلى لم يكن يتكلم هذه اللغة ، مع أنه كان يتكلم لغة قريبة منها بالنظر لكون أكثرية أعضائه من سكان سيناء ومدين وهم آراميون من أصل واحد ·

واقتبسوا كثيرا من عادات سكان فلسطين لا سيما فى حقلى الدين وطقوسه من تعبد وقرابين وأعياد ، والتنظيم السياسى الاجتماعى · فالمعبد مؤسسة كنعانية لم تكن معروفة عند الحلف قبل دخوله فلسطين ولا عند العبريين فى مصر أو الآراميين فى الصحراء · والكهنوت أيضا ، ظاهرة لم تكن موجودة فى الدين اليهودى قبل تأسيسه فى فلسطين · وكذلك ، لم يكن لليهود أعياد فأعيادهم جميعها هى التى وجدوا الكنعانيين يقيمونها · وقد اتخذوها كما هى بشعائرها وطقوسها ولم يغيروا فيها الا المعنى العام الذى كانت ترمز اليه · فبدلا من المعانى الزراعية الطبيعية

البحتة التى كانت تقوم عليها ، نسبها المهاجرون الجدد الى الحوادث والاختبارات التى جرت لهم أثناء وبعد خروجهم من مصر . فعيد الربيع ، الذى كان يعبر فيه الكنعانيون عن فرحهم ببعث الحياة فى الأرض ، أصبح مناسبة للتعبير عن فرح اليهود بخلاصهم من فرعون . وعليه ، ربط بعث الحياة فى الربيع بخلاص أبناء اليهود من الأوبئة القتالة التى اجتاحت مصر بفعل يهوه ليرهب المصريين ويرغمهم على السماح لشعبه بالخروج . لذلك سمى العيد (Paschal Seder, Passover) فقد احتفظ فيه بالخروف الذى كان يضحى فى هذه المناسبة ، وعيد الخريف ، الذى كان يعبر فيه الكنعانيون عن اغتباطهم بموسم الحصاد ، وكانوا يسكنون فيه فى المخيمات مدة جنى الثمر لبعد أراضيهم عن القرية ، أصبح عيد « سكوث » أو الخيام (Tabernacles) ، تذكيرا لاضطرار المهاجرين من مصر للمعيشة فى الخيام أثناء عبورهم الصحراء ، وكذلك اقتبس الحلف تنظيمات الكنعانيين والكثير من عاداتهم (٥٢) .

يظهر من هذا أن اليد العليا كانت للمهاجرين من مصر . والا لما كانت المعانى الجديدة التى أسندت الى هذه الطقوس كلها مستمدة من تاريخهم واختباراتهم ، وكما قلنا سابقا ، كان هؤلاء المهاجرون هم زعماء الحلف وأكثر أعضائه اندفاعا وأشدهم عزيمة للمغامرة والفتح . فلا عجب اذا سخروا المقتبسات الجديدة فى كل شىء للدلالة على اختباراتهم وأمانيهم .

ويجب علينا أن لا ننسى أبدا أن نصوص التوراة المعينة لم تكتب فى هذا العصر ، بل فى العصر الذى يليه ، وأنها صححت وروجعت وحرفت مرارا وكان آخر تحريف لها على يد عزرا ، شيخ العنصرية

---

(٥٢) انظر Albright, W.F., «The Role of the Canaanites in the History of Civilization» in Studies in the History of Culture Georqe Banta Publishing Co., 1948, pp. 11-50. ; Frankfort, Henry, Kingship and the Gods, Cambridge University press, 1948.

والتعصب الأعمى الأكبر . فلا بد للنصوص اذن من عكس هذه الروح السقيمة .

بقيت الحالة هكذا حوالى ثلاثة قرون . كان يحكم فلسطين خلالها جماعات عديدة كل فى منطقة . وكانت القبائل فى دور الاختلاط بالسكان الفلسطينيين والاستقرار . وقد ساعدت الظروف الدولية على ترك فلسطين وشأنها . فقد كانت مصر فى حالة فوضى وضعف شديد فى حكم مارنبتاح والسلالة العشرين ، تعانى هى نفسها من غارات « أهل البحر » أو الكريتيين والاغريق عليها . وكانت الامبراطورية الحيثية تنازع . وفى آخر مراحل حياتها . وكانت آشور أيضا ضعيفة ، أضعفتها حروبها مع مملكة بيطانى الى الشرق فلم تكن تستطيع تحويل نظرها الى الأحداث فى جنوبها الغربى (٥٣) .

وفى هذه الظروف ، نشأ فى منطقة يهودا ، حول حبرون (أى الخليل) فتى اسمه داوود ، وكان ذكيا وبطلا ، حارب الفلسطينيين (وهم قسم من « أهل البحر » الذين استوطنوا الساحل الفلسطينى الجنوبى) وأبلى بلاء حسنا . فذاع صيته وخشى الملك شاؤول من منافسته فطارده . فلجأ الى الفلسطينيين أعدائه ووعدهم بأن يعمل معهم ضد بلده وشعبه . وبعد أن كسب ثقتهم أخذ يتصل مع شيوخ اليهود ويخبرهم عن مواقع أعدائهم كى يجهزوا عليهم .

وما أن مات شاؤول ملك يهودا حتى نودى على داوود ملكا . فصيته كان قد ملأ الجو وغمر حبه قلب كل يهودى (أى مواطن يهودا) وسبب ذلك اعجاب اليهود بمقاتلته للفلسطينيين وخيانته لهم . فبعد أن توج ملكا على يهودا أخذ داوود على عاتقه لم شمل القبائل كلها تحت حكم واحد وتأسيس دولة كبيرة . لهذا أخذ يتوجه الى القبيلة تلو القبيلة

---

(٥٣) Ricciotti, G, The History of Israel, Bruce publishing Co., 2 Vols., 1955 ; Bright, John. op. cit. pp. 98-110.

والجار بعد الجار ، يحالف الواحدة اذا رضيت بزعامته وحكمه ، ويحارب الأخرى اذا لم ترض ، الى أن بسط نفوذه على معظم أراضى فلسطين .

ولم يكن أحد أمهر من داوود وأدهى . وليس أدل على هذا من تصفيته للمنازع الأول لملكه وهو « ايشبوشت ابن شاؤول » . باشر داوود عمليات عسكرية ضد ايشبوشت فى المنطقة الشمالية التى كان قد لجأ اليها . ولكنه ، دفعا للتهم بأنه يحارب من ينازعه الملك ، وطمعا فى كسب عطف الشعب وولائه ائتمن أحد قواده وسلمه زمام العملية وتنصل منه متظاهرا للشعب بمظهر المسالم غير المعادى . وبدون انتظار أو انذار ، تزوج من ابنة ملك جشور الكنعانى لأن مملكته مجاورة ليابيش جلعاد حيث لجأ ايشبوشت وتحصن . وكذلك دخل فى حلف عاجل مع مملكة آمون الكنعانية فى الشرق ليطبق كماشته على ايشبوشت . وعندئذ أخذ يتفاوض مع رجال عدوه ويدفعهم الى خيانة رئيسهم عن طريق الاغراء . وتقول التوراة : « ان داوود أرسل .. رسلا الى أهل يابيش جلعاد يقول لهم : مباركون أنتم من الرب اذ قد فعلتم هذا المعروف بسيدكم شاؤول فدفنتموه . والآن فليصنع الرب معكم احسانا وحقا وأنا أيضا أفعل معكم هذا الخير لأنكم فعلتم هذا الأمر . والآن فلتشدد أيديكم وكونوا ذوى بأس لأنه قد مات سيدكم شاؤول واياى مسح بيت يهودا ملكا عليهم » (٥٤) .

فهو يثنى على أعدائه لأنهم عملوا صنيعا حسنا مع رئيسهم شاؤول الذى كان عدو داوود اللدود . وهو يعدهم بأنه سيعيد لهم هذا المعروف . الا أنه لا ينسى أن يعرض عليهم مشروع مؤازرته فى مسحه ملكا على يهودا اذا أرادوا أن يحفظ لهم معروفهم . فتحت هذا الاغراء قام اثنان منهم بقتل ايشبوشت وحملا رأسه الى داوود . ولكن داوود ، ببعد نظره المعتاد ، لم يتقبل الرأس بل حكم على قتلة ايشبوشت بالاعدام ليتنصل

---

(٥٤) صموئيل الثانى ، ٢ ـ ٤ ـ ٧ .

من الجريمة • بل هو أخذ يظهر أسفه على قتل ايشبوشت عارضا صداقته على بقية الرجال ايشبوشت وشعبه (٥٥) •

فهذا هو خلق داوود ودهاؤه ومكره • وهو الذى مسح ملكا على يهودا • فلا عجب أن لجأ الى أكبر الحيل لتوسيع المملكة وارساء قواعد حكمه فيها • ففى الواقع ، ان عمل داوود السياسى هو المكون الأكبر للدين اليهودى • ففى عهده وبعده تكون الدين اليهودى بمعظم مفاهيمه ومبادئه ، وليس فى عهد موسى أو ابراهيم • فان وجدت العنصرية فى العصور السالفة ، فهى لم تكن سياسية بل قبلية • وان وجد الدين ، فلم يكن له علاقة ضرورية بالسياسة والدولة • ويجب أن نكرر هنا ما قلناه مرارا بأن ما وصلنا عن هذه العصور الغابرة من الدين اليهودى ، وصلنا عن طريق العصر الداوودى الذى طبع كل صغيرة وكبيرة فيه بطابعه •

قام داوود بعد التخلص من منافسه ، بضم القبائل المجاورة ، وبعد أن كانت له قوة ، حارب الفلسطينيين وتغلب عليهم • أما القبائل الشمالية ، فلم تزل غير راضية عن زعامته لا سيما أنها كانت تعنى زعامة رجال يهودا أيضا عليها (٥٦) •

للطريقة التى تغلب فيها داوود على هذه العقبة أكبر الأثر فى الدين اليهودى ، فحتى الآن كانت عاصمة يهودا مدينة حبرون ، ولم يكن لأورشليم حتى الآن ذكر قط • وكانت أورشليم ومنطقتها مملكة كنعانية صغيرة يملكها اليبوسيون • تحول نظر داوود اليها ، لا حبا بها ، بل سعيا وراء ارضاء القبائل الشمالية اذا تيسر له نقل العاصمة اليها ، فهى فى نظر الشمال والجنوب ، منطقة محايدة ، وأهلها ليسوا يهودا ولا شماليين •

---

(٥٥) المرجع السابق ، ٣ — ٤ •

(٥٦) Alt, A., «Das Gross Reich Davids», in Kleine Schriften Zur Geschichte des Volkes Israel, C.H. Beck'sche Verlagsbuchhandlung, 2 Vols., 1953.

ولم تحتج المسألة لمعركة ، فقد دخل داوود أورشليم معلنا أنه سيبقى كل شيء على ما كان عليه • اذ كان مصلحته أن يحافظ على طـــابع أورشليم الحيادى • ولهذا كان لا بد من ابقاء سكانها اليبوسيين فيهـا ، بل وابقائهم على دينهم وشعائرهم الكنعانية المحضة ، حتى المغاير منها لدين يهودا وطقوسه • لذلك أيضا ، اكتفى داوود بنقل حاشيته الخاصة وكبار قادته العسكريين فقط الى أورشليم وأعلنها سنة ٩٩٠ ق٠م عاصمة جديدة لجميع فلسطين • وهنا أخذ يفكر العبقرى داوود كيف يثبت الحكم ويرسى قواعده ويحافظ على المال والجاه والسلطة له ولأبنائه من بعده •

وهنا جاءته الفكرة الجهنمية بربط الدين ومصيره بعجلة الدولـة والسياسة ، كان التابوت ، وهو الصندوق الخشبى الذى كانت تحفظ فيه التوراة ووثيقة الحلف القبلى موجودا فى قرية يعاريم غربى أورشليم ، حيث استقر به المقام بعد أن دفع به الفلسطينيون الى يهودا متطايرين شرا من وجوده بينهم بعد أن سلبوه من مدينة شايلو اليهودية • ولم يكن أحد يهتم بـه فى ذلك الوقت لأنه كان قد فقد مكانته بعد أن ســـلبه الفلسطينيون ، ولم يكن يعيش حوله سوى عدد ضئيل من الكهنة أو الحفاظ الذين لا مكانة لهم •

وأول ما فعله داوود أنه قام بنقل التابوت وسدنته الى أورشليم ، وأراد أن يقلد الكنعانيين ببناء هيكل حجرى يحفظ فيه • الا أنه لـــم يستطع بناء الهيكل للمعارضة العنيفة التى قامت ضد الفكرة مع أنه أعد لذلك الخشب والأرض ، وهذا مما يدل على أن التراث القبلى كان لا زال قويا • فهو هذا التراث القبلى نفسه الذى كان يقضى بأن يبقى التابوت فى خيمة لا فى مبنى •

ورضى الكهنة كثيرا عن هذا العمل • لأن شاؤول كان قد نفاهـــم الى قرية يعاريم لشكه فى ولائهم له • ودعوة داوود لهم بالعودة مـــع التابوت والنزول فى العاصمة الجديدة ، والعيش فيها بالقرب من الملك والتابوت ، رفع كثيرا من شأنهم ، لذلك أصبحوا بين عشية وضحاهـا أكبر معاضدين للملكية بعد أن كانوا أعداءها • بل فعل داوود أكثر من

هذا ٠ جعل الكهنة رجال دولة رسميين ، وعينهم أعضاء فى مجلس الدولة الأعلى ودعاهم الى الحكم معه ، أو بالأحرى ، الى تدعيم حكمه بالوسائل التى يستطيعون تسخيرها لهذا الهدف (٥٧) ٠

لعل أهم ما قام به داوود فى هذا السبيل هو الدعوة بأن مملكته هى وريثة الحلف القبلى الوحيدة ، وذلك دفعا للادعاء الشمالى بأن الحلف القبلى لا يزال قائما وأن قبائل الشمال تتمتع بحق حكم نفسها بنفسها على الطريقة العشائرية التى نص الحلف القبلى عليها وكانت متبعة حتى الآن ٠ وتدعيما لهذا الادعاء الداوودى قام الكهنة بالدعوة الى أن المملكة الداوودية هى الوريثة الشرعية الوحيدة لعهد يهوه لابراهيم ٠ فهذا العهد ، فى رأيهم ، ليس عهد يهوه « فى اللحم » ولا هو عهده مع كل شخص من نسل يعقوب ، بل هو أولا عهده مع داوود ، مع شخص داوود بالذات ٠ ومع هذه الدولة الداوودية ، مع هذا الملك وهذه العاصمة ، هذا الكيان السياسى بالذات ، فبدل أن تكون العلاقة بين الشعب اليهودى ويهوه علاقة الفرد والجماعة بالاله ، أصبحت فى هذه الدعوة الجديدة ، علاقة الفرد كمواطن أو عضو فى هذا الكيان السياسى الجغرافى ٠ وأصبح المرتبط بيهوه بعلاقة المعهد معه مع المعاهد ، لا الفرد اليهودى ولا الجماعة اليهودية ، بل الكيان السياسى الجغرافى القائم تحت امرة داوود وبيت داوود من بعده ٠

وبهذا تحلل الحلف القبلى ٠ وحل مكانه بدلا من التقسيمات العشائرية ، التقسيمات الادارية التى ترجع فى جميع أمورها الى العاصمة ، وقابل هذا التحلل السياسى ، تحلل دينى ٠ فبدل ولاء الشخص لربه المباشر كأحد ذرية ابراهيم ، أصبح ولاءه ولاء للدولة التى هى تجسيم لعهد ابراهيم وتحقيق له ، وانحصرت شعائر هذا الولاء ليهوه بما يقيمه كهنة داوود من شعائر فقط وفى أورشليم بالذات ، فلا بد للمواطن من الانخراط فى هذا الكيان اذا أراد أن يرضى ارادة العيش

---

(٥٧) انظر تفاصيل ذلك فى الاصحاحات ٢٣ ــ ٢٨ من سفر أخبار الأيام الأول ٠

وضميره · ولا سبيل الى ربه الا عن طريق أورشليم وكهنتها (٥٨) ·

ولا عجب ان كان هـذا هو مقصد السياسة الداوودية ، أن اخذت الدولة والكهنة يختلقون أساليب الدعاية لدعم هـذه الدعوة وتركيزها · فقالوا أو جعلوا التوراة تقول :

أولا — ان داوود اختاره الالــه وعينـه بنفســه ملكا على جميع « اسرائيل » أى فلسطين ، شمالها وجنوبها ·

ثانيا — ان مملكة داوود هى عنوان وركيزة تخليص يهوه لشعبه ، فهى وعاء العهد الابراهيمى المقطوع وتجسيمه ·

ثالثا — ان أورشليم اختارها يهوه بنفسه لتكون مسكنا له · فهى ليست عاصمة داوود السياســية فحسب بل العاصــمة الدينية التى لا يمكن للاله أن يستقر أو يسكن ، أو يعبد الا فيها ·

رابعا — ان العهد الداوودى والمملكة الداوودية كلها أزلية · فمهما فعل الملوك ومهما تألبت الدول ، لن يتخلى يهوه عنها

خامســا — ليس للأمم والملوك أن لا يقووا على هذه المملكة فحسب بل عليهم جميعا أن يخضعوا لسلطانها · فداوود هو « ابن الله » المصطفى ، المسيح ·

فلنستعرض الآن بعض المقتطفات من التوراة ونستوضح منها هذه الدعاوى مباشرة · فايضاحا للحجة الأولى ، قالت التوراة : « ··· يصنع الرب لسيدى (أى لداوود) حسب لكل ما تكلم به من الخير من أجلك (أى من أجل داوود) ويقيمك رئيسا على اسرائيل » (٥٩) · وقد قال لك الرب أنت ترعى شعبى اسرائيل وأنت تكون رئيسا على اسرائيـل « ··· واقامــة كرسى داوود على اسرائيـل وعلى يهــوذا من دان الى بئر سبع » (٦٠) · « هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء

(٥٨) انظر تفاصيل ذلك فى سفر أخبار الأيام الأول ، ٢٣ — ٢٨ ·
(٥٩) صموئيل الأول ، ٢٥ : ٣٠ ·
(٦٠) صموئيل الثانى ، ٥ : ٢ ، ٣ : ١٠ ·

الغنم لتكون رئيسا على شعبى اسرائيل ، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسما عظيما كاسم العظماء الذين فى الأرض » (٦١) .

وفى الثانية ، قالت التوراة : « ... وضع (الاله) لى عهدا أبديا متقنا فى كل شىء ومحفوظا » (٦٢) يقول الرب : « ... لدور فدور (أى لجيل فجيل) أخبر عن حقك بفمى . لأنى قلت ان الرحمة الى الدهر تبنى . السموات تثبت فيها حقك . قطعت عهدا مع مختارى ... عهدى يثبت له » (٦٣) . « طوبى للأمة التى الرب الهها ، الشعب الذى اختاره ميراثا لنفسه » (٦٤) . « الرب كلم داوود قائلا : انى بيد داوود عبدى أخلص شعبى اسرائيل » (٦٥) .

وفى الثالثة ، قالت التوراة : « قال (سليمان) مبارك الرب اله اسرائيل الذى تكلم بفمه الى داوود أبى وأكمل بيده قائلا : منذ يوم أخرجت شعبى اسرائيل من مصر لم أختر مدينة من جميع أسباط اسرائيل لبناء بيت ليكون اسمى هناك بل انما اخترت داوود ليكون على شعبى اسرائيل . وكان فى قلب داوود أن يبنى بيتا لاسم الرب اله أسرائيل . فقال الرب لداوود أبى : من أجل أنه كان فى قلبك أن تبنى بيتا لاسمى قد أحسنت بكونه فى قلبك الا أنا لا تبنى أنت البيت بل ابنك الخارج من صلبك هو يبنى البيت لاسمى » (٦٦) ... « الرب قد اختار صهيون . اشتهاها مسكنا له . هذه هى راحتى (أنا الرب) الى الأبد . ههنا أسكن لأنى اشتهيتها . طعاما أباركه بركة . مساكينها أشبع خبزا . كهنتها ألبس خلاصا . وأتقياؤها يهتفون هتافا . هناك أنبت قرنا لداوود . رتبت سراجا لمسيحى » (٦٧) . وكذلك ، أخذ أنبياء

---

(٦١) المرجع السابق ، ٧ : ٨ — ٩ .
(٦٢) صموئيل الثانى ، ٢٣ : ٥ .
(٦٣) مزامير ، ٨٩ : ١ — ٣ ، ٢٨ .
(٦٤) المرجع السابق ٣٣ : ١٢ .
(٦٥) صموئيل الثانى ٣ : ١٨ .
(٦٦) الملوك الأول ، ٨ : ١٥ — ١٩ .
(٦٧) مزامير ، ١٣٢ : ١٣ — ١٧ .

اسرائيل وكهنتها يدعون أن يهوه لا يجوز أن يعبد الا عن طريقهم ، أى فى أورشليم . وهذا ما نستدله من قصة نعمان السورى الذى جاء الى اسرائيل من الشام فاتحا . وكان أبرصا . فنصحت اليه احدى الأسيرات الاسرائيليات أن يتداوى على يد النبى اليشع ، ففعل وشفى وتهود . ولما آن أوان عودته الى بلاده قال للنبى : ما أعمله ، وكيف لى أن أعبد يهوه وأنا بعيد عن أورشليم فى الشام ؟ فأجابه النبى : خذ لنفسك حمولة بغلين من التراب الأورشليمى وافرشه على الأرض هناك واعبد واسجد ليهوه وقدم له قربانك هناك فهو سيتقبل منك طالما أنك تقف على أرض أورشليم (٦٨) .

وفى الرابعة ، قالت التوراة ان الرب قال : « ... ان الرحمة الى الدهر تبنى .. حلفت لداوود عبدى الى الدهر أثبت نسلك وأبنى الى دور فدور كرسيك ... (داوود) الذى تثبت يدى معه . أيضا ذراعى تشدده .... أمانتى ورحمتى فمعه . وباسمى ينتصب قرنه . وأجعل على البحر يده وعلى الأنهار يمينه . هو يدعونى أبى أنت . الهى وصخرة خلاصى ... أجعله بكرا أعلى من ملوك الأرض . الى الدهر أحفظ له رحمتى ... وأجعل الى الأبد نسله وكرسيه مثل أيام السموات » (٦٩) . ثم تقول : ان يهوه سيجازى بنى داوود اذا خالفوا شريعته جزاء شخصيا ـ أما المملكة الداوودية فهو لن يصيبها بأذى مدى الدهر . « ان ترك بنوه شريعتى ولم يسلكوا بأحكامى ، ان نقضوا فرائضى ولم يحفظوا وصاياى ، أفتقد بعصا معصيتهم وبضربات اثمهم . أما رحمتى فلا أنزعها عنه ولا أكذب من جهة أمانتى . لا أنقض عهدى ولا أغير ما خرج من شفتى . مرة حلفت بقدسى أنى لا أكذب لداوود . نسله الى الدهر يكون كرسيه كالشمس أمامى . مثل القمر يثبت الى الدهر » (٧٠) .

---

(٦٨) الملوك الثانى ، ٥ : ٨ ـ ١٩ .
(٦٩) مزامير ، ٨٩ : ١ ـ ٢٩ .
(٧٠) المرجع السابق ، ٨٩ : ٣٠ ـ ٣٧ .

وفى الخامسة ، قالت التوراة ان الرب قال : « لا يرغمه (أى داوود) عدو وابن الاثم لا يذلله . وأسحق أعداءه أمام وجهه وأضرب مبغضه وأجعل على يده وعلى الأنهار يمينه » (٧١) . وقالت : ان داوود قال : أنت يارب « توسع خطواتى تحتى فلا تتقلقل عقباى . أتبع أعدائى فأدركهم ولا أرجع حتى أفنيهم . تمنطقنى بقوة للقتال . تصرع تحتى القائمين على ... تجعلنى رأسا للأمم . شعب لم أعرفه يتعبد لى . من سماع الأذن يسمعون لى . بنو الغرباء يتذللون لى .. حى هو ... الاله المنتقم لى والذى يخضع الشعوب تحتى ... برج خلاص لملكه والصانع رحمة لمسيحه لداوود ونسله الى الأبد » (٧٢) .

وقالت التوراة فى منتهى التعصب لداوود ومملكته :

« لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل . قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه قائلين : لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما (وهذه العبارة تدل على أن عملية ربط الدين بالدولة لم يرض عنها جميع الاسرائيليين وجيرانهم بل حاول بعضهم مقاومتها) . الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزىء بهم . حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى » .

« اننى أخبر من جهة قضاء الرب . قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك . اسألنى فاعطيك الأمم ميراثا لك وأقاصى الأرض ملكا لك . تحطمهم بقضيب من حديد . مثل اناء خزاف تكسرهم » .

« فالآن يا أيها الملوك تعقلوا . تأدبوا يا قضاة الأرض ، اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعدة ، قبلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق لأنه عن قليل يتقد غضبه . طوبى لجميع المتكلين عليه » (٧٣) ..

---

(٧١) مزامير ، ٨٩ : ٢٢ ـ ٢٥ .
(٧٢) المرجع السابق ، ١٨ : ٣٦ ـ ٥٠ .
(٧٣) نفس المرجع ، ٢ : ١ ـ ١٢ .

بمثل هذه الادعاءات ، تكون الميثـاق الداوودى . وهـــو ميثاق ذو اتجاه واحد ، كميثاق ابراهيم ، بين يهوه وداوود وذريته . وحول أورشليم وملك داوود فى أورشليم ، انعقد احساس اليهود الدينى كـــله وتبلور وعيهم بذاتهم ورسالتهم . ولعل هذا التفهم للميثاق ، هو الذى قدم به مؤلف النص (J) و (E) ميثاق ابراهيم ويعقوب .

ولا شك أن شيئا من هـــذا التاليه لداوود ولملكته ولذريته ، اقتبسه اليهود من الكنعانيين . الا أنه بينما كان الكنعانيون يؤلهون الطبيعة ، فيتصـــورون الاله الملك يموت فى كـــل شتاء ويبعث فى كـــل ربيع ، أله الاسرائيليون نظامهم السياسى ، أى مملكة داوود ، جاعلين منها عمـــل الالة بالذات وحرفيا ، الى أن أصبح الولاء ليهوه يعنى الولاء للمملكة ولداوود ولأورشليم وأصبح التعبد نفسه لله ليس الا اعـــلان هـــذا الولاء لأورشليم وتمجيد المملكة الداوودية (٧٤) .

* * *

٧ ـ كيف تطور الدين اليهودى فى عصر ما قبل المنفى ؟

لم تعش هذه المملكة الداوودية العظيمة التى تحكمت فى شــــعور المواطنين السياسى والدينى معا الا ٧٨ سنة . ففى سنة ٩٢٢ ق.م ، انفجرت قبائل الشمال وثارت ضد حكم أورشليم . فهى لم تر اذن من سلالة داوود الا داوود نفسه وابنه سليمان . ولما توفى سليمان واعتلى العرش ابنه رحبعام مكانه ، نصحه وزراؤه بأن يذهب الى شكيم ويتقبل بيعة أهلها شــخصيا منهم ليتأكد من ولائهم ويجيبهم الى طلباتهم . الا أنه لم يأبه لهـــذه النصيحة وأرسل الى شكيم أحد قواده مشيرا عليه باخضاع أهلها واذلالهم

---

(٧٤) راجع تفاصيل هـــذا التاليه ومقارنتـــه بحوادث التاريخ فى الكتب الآتية :

Engnell, I., Studies in Divine Kingship in the Near East, Uppsala, 1943 ; Hook, S.H., Myth and Ritual. Oxford University Press, London, 1933 ; Bentzen, A. King and Messiah, Lutterworth Press, London, 1955.

وتحصيل الضرائب منهم عنوة ، سواء ضرائب المال ، أم ضرائب الرجال من عمال لمشاريع الدولة العامة أو جنود لجيوشها . ولكن القبائل الشمالية لم تخضع ، بل اعتبرت هذا العمل تحديا . لذلك هاجت ، وقتلت نائب الملك وجنوده ، وانفصلت عن يهودا . وسمت الدولة الجديدة نفسها اسرائيل . أما أثناء الوحدة ، فلم يعرف للدولة اسم ، سوى مملكة داوود . وعادت دولة الجنوب الى اسمها القديم « يهودا » وحافظت على عاصمتها « أورشليم » .

ومنذ انفصال اسرائيل عن الدولة الداوودية وقيام الدولتين ، أخذت الأمور تتدهور تدهورا سريعا .

لقد كانت الدولة قائمة على سلسلة من المعاهدات والأحلاف بين القبائل العديدة والممتلكات العديدة الصغيرة ـ أى العشائر شبه المستقلة من جهة ، وبين شخصية داوود (٧٥) . فالتأليه الداوودى لم يقنع الا الذين ارتكبوه ، أى حكام يهودا يعاضدهم سكان يهودا الذين استفادوا من هذا التأليه ، ومن الوحدة السياسية التى أقيم عليها . فعندما مات سليمان . لم تكن هناك الشخصية الفذة التى تتمكن من الاحتفاظ بزمام الأمور . فتفككت الوصال ونقضت الأحلاف والمعاهدات . وما هى الا أشهر حتى تفتت المملكة وعادت الى ما كانت عليه قبل داوود ، مع العلم بأن عددا من القبائل والعشائر احتفظت بوحدات اقليمية بين بعضها البعض . فاقتصرت مملكة اسرائيل على وادى الأردن بضفتيه الى البحر ما عدا الساحل شمال حيفا الذى كان دائما لفينقية ، وبقيت موآب متحدة معها ولكن أفلتت القبائل الشمالية الى دمشق ، والشرقية من باشان الى حشبون الى عمون ، الى جلعاد . وتقلصت يهوذا الى منطقة القدس والخليل وبئر السبع والنقب الوسيط وبقيت أدوم متحدة معها زمنا قصيرا . وكذلك ، انفصلت موآب عن اسرائيل بعد زمن قصير .

---

(٧٥) Bright. J., op. cit., pp. 183–186 ; Oesterley, W.D.E. and Robinson, T.H., A History of Israel, Clarendon Press. Oxford, 1932 ; Olmstead, A.T., History of Palestine and Syria. C. Soribner'a Sons, New York, 1931.

بهذه الانقسامات ، اقفلت طرق التجارة بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب ، فضاعت الأرزاق ، وقلت الأموال ، فضعف دخـل الدولتين وقلت بذاك مقدرتهما على حفظ كيانهما .

بل وأكثر من ذلك . أخذت الدولتان تتخاصمان مع بعضهما (٧٦) . فكانت اسرائيل تميل الى التعاون مع جيرانها ضد يهودا ، وكانت يهودا تتعاون مع العدو ضد اسرائيل . تقول التوراة : « وكانت حرب بين آسا (ملك يهودا) وبعشا ملك اسرائيل كل أيامهما . وصعد بعشا ملك اسرائيل على يهودا وبنى الرامة لكى لا يدع أحدا يخرج أو يدخـل الى آسا ملك يهودا . وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية فى خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيده . وأرسلهم الملك آسا الى بنهدد بن طبريمون بن حزيون ملك آرام الساكن فى دمشق قائـلا : ان بينى وبينك وبين أبى وأبيك عهدا . هو ذا قد أرسلت اليك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك اسرائيل فيصعد عنى . فسـمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن اسرائيل وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كثروت مع كل أرض نفتالى » (٧٧) .

مئتا سنة ، قضتها الدولتان بمصارعة بعضهما البعض وتأليب جيران الواحدة على الأخرى . وقامت آشور . وزحفت جنودها من شمال العراق الى اسرائيل ، فدخلتها سنة ٧٢٢ ق.م. وأنهت تاريخ اسرائيل ، دولة الشمال ، لا سياسيا فحسب ، بل اجتماعيا ودينيا .

ولنا أن نتساءل ، كيف تمت نهـاية اسرائيل اجتماعيا ودينيـا ؟

كانت الحنيفية العامل الأكبر فى جلب النهاية . نذكر أن قبائل الشمال كانت قبل مجىء المهاجرين ، أى فى القرن العشرين (ق.م.) ، ذات نزعة حنيفية تمثلت فى أهل شكيم أحسن تمثيل . ولعل هذا يرجع الى تأصل

---

(٧٦) انظر تفاصيل ذلك فى سفر الملوك الثانى ، ١٥ — ١٧ وفى سفر هوشع .

(٧٧) الملوك الأول ، ١٥ : ١٦ — ٢٠ .

الآراميين والأموريين من قبلهم ، فى هذه المنطقة . وعندما جـــاء المهاجرون الجدد بعد القرن العشرين ، كانت منطقة الشمال أول من فتحت لهم الأبواب . وليس ذلك الا لشعور الشماليين بالاخوة لهؤلاء المهاجرين ، كما قال الملك حامـور ملك شـكيم ، مخاطبـا يعقوب ، ما معناه : تعالوا عندنا فأنتم منا ونحن منكم ، صاهرونا فنصاهركم ، ونحيا شعبا واحدا فالأرض لنا جميعا .

وكذلك عندما جـاءت قوى الحلف القبلى ، لـم يرحب بهـا الا الشماليون . وذلك لاستمرار وقوة النزعة الحنيفية بينهم . وما من شك أن الأحزاب العنصرية فى الحلف القبلى لـم ترض عن هـذه النزعـــة وحاربتها ، بل وانفصلت عنها فجعلت الجنوب مقرا لها ، الجنوب الذى دخلت عددا من مدنه عنوة وقهرا وقتلت معظم سكانه ما عدا دولـــة اليبوسيين فى أورشليم .

ولهذا السبب ، كان الشماليون غير راضين عن أعمال داوود ، وعن « عنصرة » يهوه وجعله سجين بيته فى أورشليم . ولم يقتنعوا بالدعاية اليهودية التى كان يرددها كهنة داوود المأجورين فى تأليهه وتأليه دولته . ولـم ينفكوا قـط عن الزواج من جيرانهـــم الكنعانيين والآراميين (الدمشقيين) ، فكانت سعة صدورهم وسماحتهم تزداد قوة بدخـول هذه العناصر العديدة فى تكوينهم . وكذلك فى الدين ، فهم لم يخلصوا دائما الولاء ليهوه ، وكانوا يعتبرونه ، كما هو بالفعل ، رمزا لسيطرة أورشليم ويهودا عليهم . لذلك ، لم يمانعوا فى عبادة آلهة أخرى ، ولكن يجب علينا أن نفهم هذه العبارة لا بمعنى تعبدهم لآلهة غير الله ، بل بمعنى عدم تعبدهم المطلق ليهوه . ذلك أنه عندما تقول التوراة فى نصها العزراوى العنصرى أن قبيلة أو شعبا ما كان يعبد آلهة أخرى ، فهى تعنى فقط أنها لم تدين ليهوه . ففى رأيها ، كل عبادة دون عبادة يهوه وثنية لا تغتفر .

ولكن الأمر فى اسرائيل لم يكن كله حنيفية . فلا شك أن العنصرية كانت موجودة أيضا . ومع أنها كانت مغلوبة على أمرها ، استطاعت سنة ٨٥٠ ق.م. أن تدبر قتل الملك آخاب وتبيد أسرته . وكان اثم أهاب فى

نظرها ، أنه تزوج من ايزابيل الفينيقية وسمح لهـا ولذويهـا بمزاولة شعائرهم الدينية ، أى بعدم عبادة يهوه • ودليل الانقسام فى اسرائيل بين العنصرية والحنيفية ، انقسام الأنبياء أنفسهم حول قضية ايزابيل وآخاب ، فمنهم من تقبل ذلك على أساس أن سليمان وداوود ، ملكى الدولـــة المتحدة ومؤسسيها ، تزوجا من زوجات غير يهوديات وسمحا لهن بمزاولة طقوسهما (٧٨) • ومع هذا ، بعد أن أزالت العنصرية آخاب وسلالته وأجلست ياهو بن ضانى العنصرى على عرش اسرائيل ، لم يـدم الأمر لها • فبمجرد أن ذهب ياهو ، عادت الى مزاولة حنيفيتها بالنســبة لغير اليهود • فتحالفت اسرائيل مـع الدمشقيين والآراميين ضد يهودا ، وقامت بالهجوم على يهودا بمعاونة الدمشقيين • وعند هذا ، طلب الملك عزيا ملك يهودا النجدة من شلمنصر ، ملك آشور ، فيما وراء دمشق ، فجاء هذا وابتلع دمشق والساحل الفلسطينى الى أن أوقف مصر عنــد حدها فى تل العريش • وجاء أبناؤه من بعده فأكملوا عمل والدهـــم واحتلوا اسرائيل وحولوها الى ولاية آشورية •

وتم تحويل اسرائيل الى ولاية آشورية بسرعة وفعالية ، فلم تكن هنالك معارك تذكر من جهة ، وذاب سكان اسرائيل فى عـالم آشـــور باختلاطهم مع الناس فى كل مكان • ومع أن آشـور سبت عـــددا من الاسرائيليين ونفتهم بعيدا عن اسرائيل ، ذابوا حيث نفوا ولم نعد نسمع شيئا عنهم • وهذا مهم جدا • فمنفيو يهودا خلقوا الدين اليهودى كمـــا نعرفه ، ولم ينسوا قط لا عنصريتهم ولا أورشليم ، وهم اليهود الذين عرفهم التاريخ فى الخمسة والعشرين قرنا الماضية ، فشتان ما بين منفيى اسرائيل ومنفيى يهودا •

وكذلك ، لم تطل حياة المملكة الجنوبية ، يهودا • وكانت على

---

(٧٨) راجع انقسام الرأى بين أنبياء اسرائيل فى سفر الملـوك الأول ، ١٨ : ١٩ — ٢٩ ، ٢٢ : ١ — ٢٨ ، وسابقة سليمان ببنائه معابد وثنية (أى غير يهودية) لزوجاته فى أورشليم فى نفس المصدر ، ١١ : ١ — ٨ •

وشك الوقوع فى يد الآشوريين سنة ٧٠١ ق٠م٠ ، عندما حاصر سنحاريب أورشليم سنة كاملة ٠ ولكن ، فشى الطاعون فى الجيوش مما أدى الى تراجع الآشوريين ٠ وعندما استعاد الآشوريون قواهم ، تحولوا الى مصر فوصلوا طيبة ودمروها سنة ٦٦٣ ق٠م ٠ ولا شك أنه كان بامكانهم توجيه ضربة قاضية على يهودا ٠ لكنهم لم يفعلوا لاشتغالهم بالسياسة العالمية ، بقوى أكثر بكثير من يهودا ٠ ولهذا السبب كتب ليهودا أن تعيش قرنا آخرا ٠

وما أن قامت الدولة البابلية الثانية وتم لها القضاء على آشور والاستيلاء على امبراطوريتها تحول نظر نبوخضنصر الى يهودا ٠ فدخلها سنة ٥٩٧ ق٠م وأسر عددا من سكانها ، وفتح أورشليم واحتلها سنة ٥٨٧ ق٠م وحمل أعدادا كبيرة من رجالها ونسائها أسرى الى بابل ٠ وهناك أسكنهم فى تل أبيب أو « تل السنابل » بالقرب من بابل ٠

اذن فتاريخ فلسطين بعد سليمان ، تاريخ تدهور وانحلال وانقسام وافتقار ونزاع ينتهى بالموت ٠ وقد سار هذا التاريخ كله على وتيرة واحدة ٠ اذ لم يكن فيه أية حركة بعث أو تجدد ٠ فكانت الأحوال تسير من سىء الى أسوأ ٠ ومن الطبيعى أن ينظر الانسان اذا ما حل بما حوله الانحلال والتدهور ، الى عصر ماض يعكس عليه آماله وتطلعاته ٠ وسواء فى يهودا أم فى اسرائيل ، عندما جال اليهودى العنصرى بنظره الى العصور السالفة ، توقف عند عصر داوود وسليمان ٠ ومع أن هذا العصر ، بالنسبة الى ما جاء بعده ، عصر ذهبى حقا ، أخذ العقل اليهودى ينصبه فى مخيلته مثالا لما يجب على التاريخ أن يكون ٠ فالعصر الداوودى السليمانى بخيره المادى الكبير ، بثروته ورخائه ، بفتوحاته وغنائمه ، باستقراره السياسى ووحدته ، أصبح فى نظر اليهودى العنصرى ، عصرا ذهبيا ٠ وكان اليهود ، كلما ساءت ظروفهم وأحوالهم الحاضرة ، أمعنوا فى هذا التذهيب الى أن جعلوا لمملكة داوود أكثر مما كان يحلم داوود نفسه ٠ ومن الغريب جدا فى تاريخ البشر أجمع ، أن هؤلاء الناس ، بدل أن يعملوا شيئا لاعادة مملكة داوود فعلا

وفى التاريخ ، أخذوا يتطلعون الى مجىء بطل يعيد لهم هذه المملكة لا بعملهم وكدهم هم ، بل بعمل خارج عنهم .

وسبب هـــذا ولا شك تاليههم لمملكة داوود . فــاذا كانت المملكة الداوودية هى عمل الاله ، فلا شك أن الاله ليس بحاجة الى نشاطهــم وعملهم لاعادة بنائها . فهو سينشئها للمرة الثانية مثلما أنشأها فى المرة الأولى ، بفعل بطل واحد ، بطل (Charismatic) ، أى يأتى بأعماله بشكل معجز لصفة ما فى نفسه .

ولـــم يكن تطلــع اليهود الى الدولة الداوودية مجـــرد أمـــل (Wishful thinking) أى الأمــل بحدوث شىء طيب . فكما أن الدولة مشيئة الاله فى الأرض ، كان التطلع اليها تطلعا الى تحقيق مشيئة الله . ولكن التطلع الى تحقيق مشيئة الله تعبد . وبالفعل ، كما كان العقــل اليهودى يتصور التدين والتعبد لله فى الولاء والخدمة للدولة الداوودية ، تصور الآن التدين والتعبد بالتطلع الى هذه الدولة والأمل فى اعـــادة تحقيقها . وهذا بالفعل ما أراده داوود لقومه . أى أن يكون شعورهم تجاه الدولة لا سياسيا بل دينيا . ولا شك أنه حقق ذلك . فعظمة داوود وعظمة ملك داوود لم تكن سياسية فى نظر اليهودى العنصرى ، بل عظمة دينية ، عظمة يهوه . فيهوه هو الذى اختار ، وهو الذى انتصر ، وهو الذى اشتهى وهو الذى سكن فى أورشليم . فالتطلع الى اعادة كل هذا واجب دينى .

ويجب علينا ، لكى نتفهم هذا العصر فنتفهم عقلية اليهودى المعاصر تفهما صحيحا ، أن ندفع بكل مقارنة قد تطرأ على فكرنا بين تطـــلع اليهودى الى مملكة داوود وتطلع أى شخص الى عصر ذهبى . نحن نقرأ آثار أبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ونشعر بالعزة والفخــر ونتمنى لو يعود ذلك العصر . وكذلك نقرأ عن عصر هارون الرشيد . وهذه عصور ذهبية بالنسبة لنا ، ولا شك أننا نودها أن تعود . الا أن هذا الشعور ليس كشعور اليهودى قط . وما يقابله عند اليهودى ، هو شعوره نحو القرون الوسـطى فى الأندلس الاسـلامية . فعصر الأندلس

عنده ، عصر ذهبى أبلى فيه أجداده فى العلوم والآداب والسياسه والمال والجاه أحسن البلاء . ولكن شتان ما بين شعوره نحو الأندلس وشعوره نحو المملكة الداوودية . هذا شعور أدبى اجتماعى وذلك شعور دينى . فاليهودى ، عندما يقرأ تاريخ هذه الدولة فى مجموعة الأسفار المقدسة : لا يشعر بأنه يقرأ أدبا أو تاريخا أو فلسفة — هو لا يقرأ اطلاقا — بل يتدين بقراءته . فهو فى قراءته لهذه النصوص يحقق أعمق المشاعر الدينية .

والأدب الذى يصور لنا هذه المشاعر خير تصوير ، هو ما كتبه أشعيا الأول ، وقد حفظ لنا فى سفر أشعيا ، ١ — ٣٩ (٧٩) . ويرد هذا الأدب ثلاثة مواضيع : الأول ، وصف معصية أورشليم وظلمها . الثانى ، التنبؤ بأن العدو سياتى فيدك أورشليم ويسحقها سحقا ويبيد جميع أهلها ما عدا قلة كى لا يباد العنصر اليهودى من وجه الأرض . أما الثالث ، فهو التنبؤ والبشارة بأن يهوه سيرسل فى القريب مخلصا من بيت داوود يقوم بالمعجزات معيدا للمجد الداوودى كله . وعلينا أن نلاحظ أن العقل اليهودى ربط بين هذه الأحداث الثلاثة . فهو يؤمن بالعنصرية البهودية قبل كل شىء ، وعليه ، يرى معصية أورشليم بالدرجة الأولى كتحول عن يهوه وعن مبادىء المملكة الداوودية . وهذا

(٧٩) ان السفر المعروف بهذا الاسم ألفه على الأقل اثنان ، وفى قول آخر ، ثلاثة . فاشعيا ١ — ٣٩ ألف فى عصر ما قبل المنفى — وهو يتكلم عن ظروف تاريخية وقعت قبل المنفى بقرن أو قرن ونصف . ولا ذكر فيه للسنفى . أما اشعيا ٤٠ — ٥٠ ، فقد ألف فى المنفى وقبل عودة المنفيين الى أورشليم . ولا شك أن مؤلفه غير مؤلف اشعيا ١ — ٣٩ للتفاوت الكبير الظاهر بين الأسلوبين والتفكيرين . أما اشعيا ٥٠ — ٦٠ ففيه قولان ، قول بأنه ألف من قبل اشعيا الثانى بعد العودة الى أورشليم ، أو بعد العودة ولكن فى بابل ، نظرا لتشابه ذى بال بينهما فى الفكر والأسلوب . وقول آخر بأن مؤلفه رجل آخر لا علاقة له بالمؤلفين الأولين . وقد جمعت هذه المؤلفات فى سفر واحد ، لكون مؤلفيها أصحاب اسم واحد ، هو اشعيا ، وسهى ذلك على الجامع أو المراجع فى عصر لاحق .

فى نظره يستحق عقاب يهوه . وهو يرى أن يهوه سيعاقبه بارسال أعداء أقوياء يحطمون مدنه وقراه ويسلبونه ماله . وبعد أن يأخذ هذا مجراه ، لن يكون يهوه قد نسى شعبه ، ولا قضى عليه ، انما لامه وأنبه فقط لنسيانه لالهه ولملكه داوود . عندئذ ، سيرسل يهوه رجله أو ابنه البار فيعيد لصهيون مجدها التليد السالف .

فأحداث التاريخ اذن ، يراها اليهودى لا كأحداث تاريخ لها مسبباتها ومقوماتها ونتائجها التاريخية ، بل كأحداث غيبية ، الهية تأتى وتروح لا لمساسها بواقع الأمور ، بل كجزاء وعقاب لأنه لم يمعن فى عنصريته ولم يحافظ عليها ، لأنه لم يمتثل لأمر يهوه بالمحافظة على العنصر اليهودى صافيا كاملا . أما الأحداث الطيبة ، فهو يراها لا كنتيجة حتمية لأعماله البارة – مهما كان معنى البر عنده – بل كمكافأة يهوه له لأنه حبيبه وشعبه المختار ، كتنفيذ لعهده الذى قطعه لابراهيم وتحقيقا للقسم الذى أقسمه بأن يبقى على ذرية ابراهيم ونسل داوود ومملكته .

ولكن كيف التوفيق بين الهلاك الذى سينزله يهوه بشعبه لانحرافه وتخلفه عن ارادته بأن يحفظ عنصره ، وبين الخلاص واعادة المجد الذى لا بد ليهوه أن يحققه ؟ فاذا كان الهلاك ضروريا ، لا يمكن أن يكون الخلاص ضروريا ، واذا كان الخلاص ضروريا ولا بد منه فيجب أن لا يكون الهلاك ضروريا . لقد حل العقل اليهودى هذه العقدة بحيلة بارعة جدا ، هى نظرية البقية .

نشأت نظرية البقية فى عصر ما قبل المنفى ، عندما أشبع جو الروح اليهودية بلوم اليهود وذمهم والحكم عليهم بالخيانة ، والوثنية ، والظلم وعدم الامتثال لأوامر يهوه . وكانت نشأتها بمثابة رد فعل لهذا الحكم على اليهود من قبل العقل اليهودى ، مدى أربعة قرون طويلة . وفى الواقع لو لم تطل مدد النزاع هذه القرون الأربعة ، لما تطور الدين اليهودى الى هذا . الا أن طول النزاع قبل الموت جعل العقل اليهودى سقيما بحكمه على نفسه وعدم قيامه بشىء ما لتكذيب هذا الحكم

أو تنفيذه والانتهاء منه • لهذا ، جاءت نظرية البقية تقول بأنه مهما تحول الشعب اليهودى عن يهوديته ، ومهما عصى ليهوه أوامره ، ومهما خالف فى طقوسه وعاداته ما رسمته له الدولة الداوودية ، فان بقية منه لن تتحول ولن تنحرف ولن تتخلف ، بل تبقى باقية على اخلاصها وولائها وقداستها وطاعتها وخيريتها • وبديهى أن الغاية من هذه النظرية ، أى الهدف البعيد الذى تحققه ، هو التمكين من الابقاء على الشعب اليهودى ، أى العنصرية • فهى اذن أداة للعنصرية • وخدمة هذه النظرية للعقل ، هى أنها تزيل التناقض الحاصل بين ضرورة الهلاك وضرورة الخلاص • فطالما أن هناك بقية صالحة ، فالهلاك الكلى ليس ضروريا • ولكن الخلاص ليس للجميع ، لان الحقيقة الواقعة هى أن ليس الجميع صالحين ، أى عنصريين • لهذا ، جاءت نظرية البقية تهدى الخلاص للذين تريد العنصرية اليهودية لهم الخلاص • كما دفعت بالهلاك الى الذين كانت تريد لهم الهلاك •

ولهذه النظرية مزية أخرى • فطالما أن الحكم بالهلاك ليس مطلقا ، يتمكن اليهودى فى أى وقت يشاء من الافلات من قبضة الأخلاق • وبأخلاقه هو يخلق العنصرية ، أى يجعلها خلقية بنسبة أعمالها الى البقية الصالحة • وليس أدل على هذا التلاعب بالأخلاق من أن نقارنه بالحكم القرآنى • هناك ، أى فى القرآن الكريم ، عنى المؤمنين واجب هو تحقيق أمانة السموات التى رفضها الملائكة وتقبلها الانسان • فان حققها المؤمنون كانت لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الدنيا والآخرة • وان لم يحققوها ، باءوا بغضب من الله كبير ، لا فى الآخرة فحسب ، بل وفى الدنيا أيضا ، بل أكثر من هذا وأشد صراحة واطلاقا : ان لم يحققوها فسيهلكهم الله جميعا بدون استثناء، ويستبدلهم بقوم آخرين يحققونها ويرثون المؤمنين وما لهم من أرض ومال وتاريخ •

ولعل هذه الصرامة الاسلامية جاءت جوابا ودواء لتلك الميوعة اليهودية ، بل قل الاحتيال الأخلاقى على الأخلاق •

لنقرأ الآن شيئا من هذا الأدب •

يقول أشعيا فى وصف معصية أورشليم وظلمها :

« ويل للأمة الخاطئة • الشعب الثقيل الاثم • نسل فاعلى الشر • أولاد مفسدين • تركوا الرب واستهانوا بقدوس اسرائيل • ارتدوا الى الوراء • علام تضربون بعد • تزدادون زيغانا • كل الرأس مريض وكل القلب سقيم • من أسفل القدم الى الرأس • ليس فيه صحة بل جرح واحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت • بلادكم خربة • مدنكم محرقة بالنار • أرضكم تأكلها غرباء قدامكم وهى خربة كانقلاب الغرباء • فبقيت ابنة صهيون (أى أورشليم – ولعل هذا القول يشير الى حصار سنحاريب لها) كمظلة فى كرم • كخيمة فى مقثاة • كمدينة محاصرة » (٨٠) •

« ويل للبنين المتمردين • يقول الرب • حتى أنهم يجرون رأيا وليس منى ، ويسكبون سكيبا وليس بروحى ، ليزيدوا خطيئة على خطيئة ••• تعال الآن اكتب هذا عندهم على لوح وارسمه فى سفر ليكون لزمن آت للأبد الى الدهور • لأنه شعب متمرد أولاد كذبة لم يشاءوا أن يسمعوا شريعة الرب • الذين يقولون للرائين لا تروا وللناظرين لا تنظروا لنا مستقيمات ••• حيدوا عن الطريق ، ميلوا عن السبيل ، اعزلوا من أمامنا قدوس اسرائيل » (٨١) •

ويقول متنبئا بيوم الحساب لأورشليم العاصية :

« ويل لاريئيل • لاريئيل قرية نزل عليها داوود (تعنى كلمة أريئيل فى العبرية « موقدا للنار » وهو اسم يطلق على المكان المقدس داخل الهيكل حيث يسكن الاله • وأريئيل القرية ، هى أورشيلم لأن يهوه اتخذها مسكنا له) • زيدوا سنة على سنة (أى فى عصيانكم) • لتدر الأعياد ، وأنا أضايق أريئيل فيكون نوح وحزن وتكون لى كاريئيل (أى كنار موقدة ، كذا تكون مدينة أورشليم عندما يحرقها يهوه) • وأحيط بك كالدائرة وأضايق عليك بحصن وأقيم عليك متارس • فتتضعين وتتكلمين

---

(٨٠) اشعياء ، ١ : ٤ – ٨ •
(٨١) المرجع السابق ، ٣٠ : ١ – ١١ •

من الأرض ، وينخفض قولك من التراب ويكون صوتك كخيال من الأرض ويشقشق قولك من التراب • ويصير جمهور أعدائك كالغبار الدقيق وجمهور العتاة كالعصافة المارة • ويكون ذلك فى لحظة بغتة ••• توانوا وابهتوا ، تلذذوا واعموا • قد سكروا وليس من الخمر • ترنحوا وليس من المسكر » (٨٢) •

وكان اشعيا كان يتوقع أن يحل بأورشليم نفس المصير الذى حل باسرائيل والسامرة عاصمتها ، لا على يد آشور فحسب بل على يد مصر أيضا • وهو يندد بانصهار الشعب الأورشليمى كما انصهرت شعوب دولة اسرائيل فى بلاد آشور • يقول : « يجلب الرب عليك وعلى شعبك وعلى أبيك أياما لم تات منذ يوم اعتزال افرايم عن يهودا (أى انفصال اسرائيل عن يهودا سنة ٩٢٢ ق•م•) ••• ويكون فى ذلك اليوم أن الرب يصفر للذباب الذى فى أقصى ترع مصر وللنمل الذى فى أرض آشور فتأتى وتحل جميعها فى الأودية الخربة وفى شقوق الصخور وفى كل غاب الشوك وفى كل المراعى • فى ذلك اليوم ، يحلق السيد بموسى مستأجرة فى عبر النهر بملك آشور الرأس وشعر الرجلين وتنزع اللحية أيضا (وهى معاملة العبيد فى ذلك الوقت) • ويكون فى ذلك اليوم ، أن الانسان يربى عجلة بقر وشاتين • ويكون انه من كثرة صنعها اللبن يأكل زبدا فان كل من أبقى فى الأرض يأكل زبدا وعسلا • ويكون فى ذلك اليوم أن كل موضع كان فيه ألف جفنة بألف من الفضة يكون للشوك والحسك (أى أن أراضى يهودا التى كانت عامرة ستصبح خربة يسكنها اللصوص وقاطعو الطرق) • بالسهام والقوس يؤتى الى هناك لأن كل الأرض تكون شوكا وحسكا » (٨٣) •

ويقول اشعيا لسكان أورشليم أن تحصيناتهم وجنودهم لن تجدى نفعا عندما تصل أعداء يهودا من كل جهة • « تكون أفضل أوديتك ملآنة مركبات والفرسان تصطف اصطفافا نحو الباب • ويكشف ستر يهودا ••• ورأيتم شقوق مدينة داوود أنها صارت كثيرة وجمعتم مياه البركة

---

(٨٢) أشعياء ، ٢٩ : ١ – ٩ •

(٨٣) المرجع السابق ، ٧ : ١٧ – ٢٤ •

السفلى . وعددتم بيوت أورشليم وهدمتم البيوت لتحصين السور وصنعتم خندقا بين السورين لمياه البركة العتيقة . ولكن لم تنظروا الى صانعه ولم تروا مصوره من قديم (أى يهوه) ... فأعلن فى أذنى رب الجنود لا يغفرن لكم هذا الاثم حتى تموتوا ... » (٨٤) .

ولعل اشعيا أشد بلاغة فى تبشيره بالفرج القريب منه فى تنبؤه بالهلاك . والفرج لن يأتى فى نظره الا عن يد البطل الـ (Charismatic) فهو يقول : « هو ذا بالعدل يملك ملك ورؤساء بالحق يترأسون . ويكون انسان كمخبأ من الريح وستارة من السيل كسواقى ماء فى مكان يابس . كظل صخرة عظيمة فى أرض معيبة (٨٥) . « لأن فى ذلك اليوم .. يسقط آشور بسيف غير رجل ، وسيف غير انسان يأكله فيهرب من أمام السيف ويكون مختاروه تحت الجزية ، وصخره من الخوف يزول ، ومن الراية يرتعب رؤساؤه . يقول الرب الذى له نار فى صهيون وله تنور فى أورشليم (٨٦) : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابنا وتكون الرئاسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مثيرا الها قديرا أبا أبديا رئيس السلام . لنمو رئاسته وللسلام لا نهاية على كرسى داوود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن الى الأبد » (٨٧) .

وينطلق لسان اشعيا بوصف يوم الفرج فيقول : « تفرح البرية والأرض اليابسة ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس . يزهر ازهارا ويبتهج ابتهاجا ويرنم . يدفع اليه مجد لبنان . بهاء كرمل وشارون . هم يرون مجد الرب ، بهاء الهنا . شددوا الأيادى المرخية والركب المرتعشة ثبتوها . قولوا لخائفى القلوب تشددوا لا تخافوا . هو ذا الهكم .

---

(٨٤) أشعيا ، ٢٢ : ٧ — ١٤ .
(٨٥) المرجع السابق ، ٣٢ : ١ — ٢ .
(٨٦) نفس المرجع ، ٣١ : ٧ — ٨ .
(٨٧) نفس المرجع ، ٩ : ٦ — ٧ . هذه هى الكلمات التى أدخلها جورج هاندل فى مؤلفه الموسيقى المشهور « المسيح » ، لأنها فى التفهم المسيحى لهذه النصوص ، ترمز الى مجىء السيد المسيح .

الانتقام يأتى . جزاء الله . هو يأتى ويخلصكم ... تكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة . لا يعبر فيها نجس بل هى لهم (أى لليهود فقط) . من سلك فى الطريق حتى الجهال لا يضل ، لا يكون هناك أسد . وحش مفترس لا يصعد اليها . لا يوجد هناك . بل يسلك المفديون فيها . ومفديو الرب يرجعون ويأتون الى صهيون بترنم وفرح أبدى على رؤوسهم . ابتهاج وفرح يدركانهم ويهرب الحزن والتنهد »(٨٨) . هذه والكلمة التى سبقتها يرددها الصهيونيون كثيرا فى دعاياتهم للعودة الى فلسطين فى الأقطار المسيحية لأنها للمسيحيين كلمات جد محببة . اذ هم يتخذونها كبشرى لمقدم المسيح . فالصهيونية تستغل تقدير المسيحيين لهذه الكلمات لنشر دعوتها أن ما تفعله فى فلسطين الآن ليس الا ازدهارا للصحراء المقفرة .

ولكن ليس كل اليهود سيرجعون الى أورشليم الالهية فيجدونها مزدهرة بين عشية وضحاها ، بل البقية الصالحة فقط . حتى الهلاك فهو لن يصيب هذه البقية : « لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة » (٨٩) . « ويكون فى ذلك اليوم أن بقية اسرائيل والناجين من بيت يعقوب لا يعودون يتوكلون أيضا على ضاربهم بل يتوكلون على الرب قدوس اسرائيل بالحق . ترجع البقية ، بقية يعقوب الى الله القدير . لأنه وان كان شعبك يا اسرائيل كرمل البحر ترجع بقية منه . قد قضى بفناء فائض بالعدل » (٩٠) . والبقية هذه ، ليست بقية بل كل ما تبقى ، هى بالأحرى ، الأمة ، كما يقول اشعيا : « فى ذلك اليوم يغنى بهذه الأغنية فى أرض يهودا : لنا مدينة قوية . يجعل الخلاص أسوارا ومترسة . افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة » (٩١) . ومع هذا فالاغتباط والفرح العظيم لا يخلو من الانتقام والحقد ، فيقول اشعيا : « لأن الرب سيرحم

---

(٨٨) أشعيا ، ٣٥ : ١ — ١٠ .
(٨٩) المرجع السابق ، ١ : ٩ .
(٩٠) نفس المرجع ، ١٠ : ٢٠ — ٢٢ .
(٩١) نفس المرجع ، ٢٦ : ١ — ٢ .

يعقوب ويختار أيضا اسرائيل ويريحهم فى أرضهم فتقترن بهم الغرباء وينضمون الى بيت يعقوب • ويأخذهم شعوب ويأتون بهم الى موضعهم ويمتلكهم بيت اسرائيل فى أرض الرب عبيدا واماء ويسبون الذين سبوهم ويتسلطون على ظالميهم » (٩٢) •

ولا بد لنا من الملاحظة قبل اختتام البحث فى عصر ما قبل المنفى ان فى التطلع الى المملكة الداوودية ، والأمـل فى أن يقوم رجل بطل باعادة هذه المملكة الضـائعة ، قـامت جـذور الحركـة المسـيحية ، أى (Messianism) أو حركة ترقب مجىء المخلص • فعن هذه الظروف ، نشأت فى فلسطين حركة تنظر الى العالم بمنظار أسود فلا تجد لسـوئه حلا أو دواء ، وتنظر الى الدولة الداوودية كأنها المثال الذى يجب ان يرجى وتتطلع الى تحقيقه بسرعة ، على يد بطل يحققه تماما كمـا حقق داوود المملكة المذهبة بذاتها • الا أن هذه الحركة لم تكن قد أثمرت بعد ، وكانت فى هذا العصر شديدة التمسك بمادية المثال الذى يترقب تحقيقه • اذ كان هدفها الأول والأخير هدفا تاريخيا زمانيا ، لا يحقق فى مكان سوى أورشليم بالذات •

* * *

٨ ــ ما هى الحصيلة الدينية لعصر المنفى ٥٨٧ ــ ٥٣٨ ق٠م :

قامت بابل الثانية قياما سريعا • ففى سنة ٦٢٦ ق٠م قام نبو فلصر ملكا على بابل ولم تمض سنوات قلائل الا وأعد العدة لاحتلال نينوى عاصمة آشور • وتم له ما أراد من فتح نينوى سنة ٦١٢ ق٠م • وتحول بعد ذلك الى المغرب لتملك ارث آشور • فجاءت جيوشه الى ساحل البحر الأبيض المتوسط • وفى ذلك الوقت ، عقدت يهودا حلفا مع مصر فى الغرب ومع أدوم فى الشرق ظنا منها أنهما سيحميانها من الجيش المتقدم • وعندما علم نبوخذ نصر ابن نبوفلصر بذلك ، وجه وجهه شطر أورشليم

---

(٩٢) اشعيا ، ١٤ : ١ ــ ٢ •

ففتحها وسبى أكثر أهلها . وتابع نبوخضنصر سيره الى مصر فاحتـــــل قسما منها فى عهد الملك أماسيس بين سنتى ٥٦٩ و ٥٢٥ ق.م .

وبذات السرعة الخاطفة ، قام كورش فى فارس وأمسك زمـــام الملك فيها . وهاجم بابل واحتلها سنة ٥٣٩ ق.م .

وكان على اتصال بكورش يهودى ممن سبوا ونقلوا الى تل أبيب اسمه اشعيا . وهذا هو اشعيا الثانى . ويقال ان اشعيا كان عميلا وجسوسا لكورش فى بابل . وليس هذا بالمستغرب طالما أن اليهود كانوا ينظرون لبابل أسوأ النظر ويضمرون لها أشد الحقد والعداء ، فهى سابيتهم وسيدتهم وهم عبيدها وأسراها .

وما أن نجحت حملة كورش على بابل ، حتى أصدر كورش أمره المشهور سنة ٥٣٨ ق.م بالسماح لمنفيى أورشليم بالعودة الى بلدهم . ومع أن اشعيا كان يظن أن كورش فعل هـذا تحقيقا لعهد يهوه لابراهيـم وداوود ، فالحقيقة هى أن كورش لم يكن يأبه لهذه الاعتبارات قـط . وكان تفكيره كله سياسيا بحتا . كان كورش يخشى أن تفاجئه مصر بزحف من جهتها قبل أن يهضم ما كسبه من ممالك . وبما أن يهودا فى منتصف الطريق بينه وبين مصر ، وبما أن العنصريين اليهود — وأكثر المنفيين عنصريون شديدو التعصب — لن يتعاونوا مع مصر بل سيقاومونها اذا زحفت ، كان من المستحب أن يرجع المنفيون الى أورشليم ويبنوا هناك حصونا قوية . لهذا أصدر كورش أمره بالسماح لهم بالعودة .

ولما لم يستطع اليهود بناء أورشليم وخاب أملهم ، قام أبناء كورش قمبيز ودارا بمساعدة اليهود بالجيش ومال الدولة . الا أن حملة الفرس على مصر نجحت سنة ٥٢٥ ق.م ، وبعد ذلك ، لم يعد الفرس يذكرون أورشليم لا بكثير أو قليل .

ان عصر المنفى قصير جدا ويجدر أن لا يسمى عصرا . فقد دام ٤٩ سنة فقط ، أى جيلا واحدا . الا أنه عصر بكل ما فى هــذه الكلمة من معنى ، لا لطوله ، بل للتطور الكبير الذى أحدثه فى الدين اليهودى .

فالدين اليهودى ، كدين للمنفيين اختص بهم واختصوا به ، نشأ فى المنفى . ولم تكن المواد التى نشأ منها هذا الدين جديدة . فهى كلها قديمة . وهذه المواد سبعة :

أولا ـ اختار الله العنصر العبرى ، باختياره شخص ابراهيم ، ليكون له شعبا كغيره من الشعوب .

ثانيا ـ أعطى الله ميثاقه لهذا العنصر ، وهو ليس عقدا بل هو عهد أزلى لا ينقض .

ثالثا ـ تنفيذا لهذا الميثاق ، أخرج الله العنصر العبرى من مصر ، وانقذه من فرعون ، وأهلك أهل فلسطين من أجله وأسكنه فلسطين وملكه اياها .

رابعا ـ اختار الله داوودا ودفعه الى ما هو تحقيق للميثاق ، ى الى انشاء الدولة الداوودية وجدد الله له العهد بأن هذه الدولة الالهية لن تزول . لهذا جعل الله للعنصر المختار ملكا وأرضا ودولة هى هذا الملك وهذه الأرض وهذه الدولة .

خامسا ـ انحرف العنصر العبرى عن الطريق العبرى ، فأفلت منه الملك . فكيف يفلت الملك ومالكه هو الله !

سادسا ـ على العنصر العبرى أن يتطلع الى استرجاع هـذا الملك بكل عقله وقلبه .

سابعا ـ ولا بد أنه سيسترجعه . لأنه لم ينحرف كله . فهناك بقية صالحة . وبهذا يصدق عهد يهوه بأن ملك العنصر العبرى ـ الذى هـو ملكه ـ لن يزول .

فعصر المنفى أخذ هذه المواد وذكاها . فاذا العبقرية العنصرية تنفجر ايمانا بهذا الايمان ، وحقدا وتشفيا بالعدو الذى سلب العنصر العبرى ملكه . وفى هذه الأحوال النفسانية ، جاء أشعيا يتغنى بأمـل العودة ويرنم له بعبقرية أوقدت الروح العنصرية عند جميع اليهود . وهو لم يرنم فحسب .

لقد أخذ يعمل . ويعمل بجد وحسب تخطيط . ولا شك أنه أقنع كبار المنفيين بخطة التعاون مع كورش وخيانة بابل كخطوة أولى تجاه العودة . اذن لقد أضاف عصر المنفى على المواد السبعة مادة ثامنة ، هى تحويل أمل العودة واسترجاع الملك الى ارادة فعالة مخططة ، الى عمل ايجابى .

وليست الصهيونية الا هذه المواد الثمان . السبعة الأولى مواد عقائدية ، والثامنة ، هى المادة العملية ، التى تستهدف تحويل ما فى العقل والقلب الى حقيقة تاريخية واقعة .

لنقرأ مقتطفات من أشعيا ، ٤٠ الى ٥٠ ، فوصف أشعيا خير من كل وصف . ولنبدأها بمزمار ألف فى المنفى ، وربما كان مؤلفه أشعيا الثانى بالذات :

« على أنهار بابل هناك جلسنا . بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون . على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا . لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا فرحا قائلين : رنموا لنا من ترنيمات صهيون .

كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة ؟ ان نسيتك يا أورشليم فلتنس يمينى مهارتها وليلتصق لسانى بحنكى ان لم أذكرك ، ان لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى .

اذكر يارب لبنى آدوم يوم أورشليم القائلين : هدوا هدوا حتى الى أساسها . يابنت بابل المخربة ! طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا . طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة » (٩٣) .

« لماذا رفضتنا يا الله الى الأبد ... اذكر جماعتك التى اقتنيتها منذ القدم وفديتها سبط ميراثك . جبل صهيون هذا الذى سكنت فيه . ارفع خطواتك الى الحرب الأبدية . الكل قد حطم العدو فى المقدس . قد زمجر مقاوموك فى وسط معهدك ... أطلقوا النار فى مقدسك .

---

(٩٣) مزامير ، ١٣٧ : ١ ـ ٩ .

دنسوا الأرض مسكن اسمك . حتى متى يا الله يعير المقاوم ويهين العدو اسمك الى الغاية . لماذا ترد يدك ويمينك . أخرجها من وسط حضنك . أفن ... اذكر هذا أن العدو قد عير الرب وشعبا جاهلا قد أهان اسمك لا تسلم للوحوش نفس يمامتك ... قم يا الله . أقم دعواك . اذكر تعيير الجاهل اياك اليوم كله ... » (٩٤) .

هذا أحد موضوعى المنفى . أما الموضوع الثانى فهو البشرى بأن الخلاص قد أتى أخيرا . يقول أشعيا :

« عزوا عزوا شعبى يقول الهكم : طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل . ان اثمها قد عفى عنه . انها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها .

على جبل عال اصعدى يا مبشرة صهيون (المبشرة هى احدى الفتيات اللاتى كن يتقدمن من طابور الجيش بالأبواق معلنات للملأ عودة الجيش المنتصر الى بلده) . ارفعى صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم . ارفعى لا تخافى . قولى لمدن يهودا هو ذا الهك .هو ذا السيد الرب بقوة يأتى وذراعه تحكم له (يتخيل هنا أشعيا عودة المنفيين الى أورشليم ، كعودة الجيش الظافر الذى يأتى بقوة — بل هو يتمثله كأنه الاله يهوه بالذات) هو ذا أجرته معه وعملته قدامه (وكما كان الجيش الظافر يتقدمه الأسرى والغنائم التى اكتسبها فى الحرب فكذلك جيش يهوه ، أى المنفيون ، يتقدمهم أجرتهم وعملتهم) . هو ذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان تحسب . هو ذا الجزائر يرفعها كدفة . ولبنان ليس كافيا للايقاد وحيوانه ليس كافيا لمحرقة . كل الأمم كلا شىء قدامه . من العدم والباطل تحسب عنده » (٩٥) .

كان أشعيا يرى أن كورش اختاره الله كى يخلص اليهود . وكان

---

(٩٤) مزامير ، ٧٤ : ١ — ٢٢ .
(٩٥) أشعيا ، ٤٠ : ١ — ١٧ .

يظن أن كورش سيصبح يهوديا ويأخذ على عاتقه قيادة الشعب اليهودى واعلاء شأنه ليصبح قانونا وسيدا لجميع الأمم كما وعد يهوه • لذلك ، فهو لم ير فى قيام فارس مجرد قيام امبراطورية جديدة ، بل قيـــــام الدولة الداوودية نفسها • ولذلك أيضا ، اعتز أشعيا بكورش أعظم الاعتزاز وسماه المسيح ، أى ملك يهودا المنتظر مسحه بالزيت ـ أى تتويجه ـ ملكا على أورشليم • وذهب الى وصفه ابنا ليهوه ، يصيره وينصره حتى يعيد بناء مجد داوود • وبما أن كورش كان لا يقل عبقرية عن أشعيا ، لا بد أنه أوعز الى أشعيا بانه سيصبح يهوديا اذا ما كتب له النصر وأنه سيعمل على تحقيق كل ما كان يحلم به أشعيا • وذلك تطمينا لأشعيا كى يعمل كل ما فى طاقته وطاقة شعبه لطعن بابل فى عقر دارها أثناء حربها مــع كورش • وقد كانت هذه سياسة كورش مع جميع الأمم الأخرى •

« أنصتى الى أيتها الجزائر (الجزائر المعنية قبرص وكريت وربما جزائر الاغريق ـ أى أبعد بقاع الأرض) • ولتجدد القبائل قوة ••• من أنهض من المشرق الذى يلاقيه النصر عند رجليه (أى كورش • ويريد أشعيا أن يقول الناس ان اله اليهود هو الذى بعث كورش) • دفع أمامه أمما وعلى ملوك سلطه • جعلهم كالتراب بسيفه وكالقش المنذرى بقوسه • طردهم • مر سالما فى طريق لم يسلكه برجليه ••• أنا الرب الأول ومع الآخرين • أنا هو •

« قد أنهضته من الشمال فأتى • من مشرق الشمس يدعو باسمى • يأتى على الولاة كما على الملاط وكخزاف يدوس الطين ••• » (٩٦) •

« هــو ذا عبدى الذى أعضــده • مختارى الذى سرت به نفسى • وضعت روحى عليه فيخرج الحق للأمم ••• أنا الرب قد دعوتك بالسير فامسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم » (٩٧) •

« هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس

---

(٩٦) اشعيا ، ٤١ : ١ ـ ٢٥ •
(٩٧) المرجع السابق ، ٤٢ : ١ ـ ٦ •

أمامه أمما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق . أنا أسير أمامك والهضاب أمهد . أكسر مصراعى النحاس ومغاليق الحديد أقصف . وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء لكى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك اله اسرائيل » (٩٨) .

أما الداعى الى هذا الاختيار وهذا التمهيد وهذه المعاضدة الالهية فهو ارجاع المنفيين وتخليصهم ، ثم اعادة بناء مجد أورشليم . يقـــول أشعيا :

« وأما أنت يا اسرائيل عبدى يا يعقوب الذى اخترته نسل ابراهيم خليلى الذى أمسكته من أطراف الأرض ومن أقطارها دعوته وقلت لك أنت عبدى اخترتك ولم أرفضك . لا تخف لأنى معك ... انه سيخزى ويخجل جميع المغتاظين عليك . يكون كلا شىء مخاصموك ويبيدون . تفتش على منازعيك ولا تجدهم . يكون محاربوك كلا شىء وكالعدم ... لا تخف يا دودة يعقوب ، يا شرذمة اسرائيل . أنا أعينك . يقول الرب وفاديك قدوس اسرائيل : هأنذا قـد جعلتك « نورجا » محددا جديدا ذا أسنان . تدرس الجبال وتسحقها وتجعل الآكام كالعصافة . تذريهـــا فالريح تحملها والعاصفة تبددها وأنت تبتهج بالرب . بقدوس اسرائيـــل تفتخر » (٩٩) .

« ... يقول الرب خالقك ، يا يعقوب ، وجابلك ، يا اسرائيل . لا تخف لأنى فديتك . دعوتك باسمك . أنت لى ... جعلت مصر فديتك ، كوش وسبا عوضك . اذ صرت عزيزا فى عينى مكرما وأنا قد أحببتك . أعطى أناسا عوضك وشعوبا عوض نفسك . لا تخف فانى معك . من المشرق آتى بنسلك ومن المغرب أجمعهم . أقول للشمال أعط وللجنوب لا تمنع . ائت ببنى من بعيد وببناتى من أقصى الأرض ، بكل من دعى باسمى ولمجدى خلقته وجبلته وصنعته » (١٠٠) .

---

(٩٨) اشعيا ، ٤٥ : ١ ـ ٣ .
(٩٩) المرجع السابق ، ٤١ : ٨ ـ ١٦ .
(١٠٠) نفس المرجع ، ٤٣ : ١ ـ ٧ .

« (أنا الله) .. القائل عن أورشليم ستعمر ولمدن يهودا ستبنين ، وخربها أقيم . القائل للجة انشفى وأنهارك أجفف . القائل عن كورش راعى . فكل مسرتى يتمم ويقول عن أورشليم ستبنى وللهيكل ستؤسس » (١٠١) .

وينسب أشعيا الى الله هذه الكلمات التى تفيض عنصرية وتبجحا بشعب اسرائيل . يقول ان الرب قال : « وقالت صهيون قد تركنى الرب ، وسيدى نسينى . هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها . حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك . هو ذا على كفى نقشتك . أسوارك أمامى دائما . قد أسرع بنوك . هادموك ومخربوك منك يخرجون . ارفعى عينيك حواليك وانظرى . كلهم قد اجتمعوا ... انك تلبسين كلهم كحلى وتتنطقين بهم كعروس . ان خربك وبراريك وأرض خرابك انك تكونين الآن ضيقة على السكان ويتباعد مبتلعوك » .

« هكذا قال السيد الرب ها أنى أرفع الى الأمم يدى والى الشعوب رايتى ، فيأتون بأولادك فى الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن . ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك . بالوجوه الى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك ... وأنا أخاصم مخاصميك وأخلص أولادك . وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم كما من سلاف فيعلم كل بشر أنى أنا الرب مخلصك وفديك عزيز يعقوب » (١٠٢) .

وليس من شك أن الصهيونية تستوحى ايمانها بصهيون من هذه الكلمات وهى تعتقد ، كما اعتقد أشعيا ، أن الله ذاته هو الذى يعمل دائبا على عودة المنفيين اليهود أنى كانوا ، محمولين فى الأحضان وعلى الأكتاف ، الى أورشليم . وهناك فى أورشليم ، سيسجد الملوك وشعوبهم أمام اسرائيل وربها ، ويعلنون خضوعهم لقانونها .

* * *

---

(١٠١) اشعيا ، ٤٤ : ٢٦ -- ٢٨ .
(١٠٢) المرجع السابق ، ٤٩ : ١٤ — ٢٦ .

٩ – كيف تطور الدين اليهودى بعد العودة ؟

كان الذين حملوا أسرى الى بابل زعماء يهودا وقادتها العسكريين والسياسيين والاقتصاديين والفكريين – ذلك لأن القـادة هـم الجديرون بالأسر والنفى فى رأى القاهر المنتصر · أمام العـوام ، فسعرهم رخيص وقيمتهم قليلة · وطالما أن المنفيين كانوا فى الغالب من القادة ، فلا بد من أنهم كانوا أشد عنصرية وأكثر تعصبا للابقاء على الكيان اليهودى · لهذا ، نستطيع أن نفهم تفجر الصهيونية بينهم ، وفى المنفى ، لا فى أورشليم ذاتها أو أية بقعة أخرى وجد اليهود فيها · ومع هذا ، فبالرغم من تفجر الصهيونية فى بابل ، وتوقد وعى العودة وارادتها فيها ، لـم يستجب لأمر كورش بالعودة الى أورشليم سوى قلة (١٠٣) ·

والسبب فى ذلك ، هو أن عددا كبيرا منهم انخرط فى التجارة والصناعة فأبلى فيها بلاء حسنا ونسى أورشليم · أو على الأقل ، لم يعد حماسه لأورشليم وتطلعه للعودة اليها من الشدة بحيث يجعله يترك المال والمركز اللذين جناهما ، ويدفع بنفسه الى مغامرة أخرى ، وبداية أخرى فى أورشليم (١٠٤) · فآثار نيبور والفنطينة تذكر أسماء يهودية كثيرة فى معاملات الدولة التجارية والاقتصادية (١٠٥) ·

فكما أن فى العصر الحديث ، مشكلة الصهيونية الكبرى هى مشكلة

---

(١٠٣) انظر : Torrey, C.C. The Chronicler's History of Israel, Yale University Press, 1954.

(١٠٤) انظر : Janssen, E., Juda in der Exilszeit, Vandenboeck and Ruprecht, Gottingen, 1956, pp. 25–39.

(١٠٥) وانظر ايضا فيما يتعلقبحياة اليهودفىبابل Wiseman, D.J., Chronicles of Chaldean Kings (525-556) in the British Museum, The British Museum, London, 1956. pp. 38 ff.

وفيما يتعلق بحياتهم فى مصر انظر :

Kienitz, F.K., Die Politische Geschichte Agyptens Vol 7. bis zum, 4. Jahrhundert Vor der Zeitwende, Akademie Verlag. Berlin, 1953, pp. 29-31.

ترغيب اليهود فى الهجرة الى فلسطين ، كانت نفس المشكلة تواجـه أشعيا الثانى فى بابل • وكما يدفع أثرياء اليهود فى أمريكا الأمـوال الطائلة لاعانة مشاريع العودة والاستيطان ، كذلك كان يفعل أثرياء اليهود فى بابل والامبراطورية الفارسية • فهم كانوا يأبون الهجرة ولا يرغبون أبناءهم بها •

ويقول سفر عزرا . ان كورش أمر اليهود باعانة العائدين ، ان لم يكونوا بينهم ، أى اذا فضلوا البقاء فى بابل : « ••• كورش ، ملك فارس ، أطلق نداء فى كل مملكته وبالكتابة أيضا قائلا ••• من منكم من كل شعبه ليكن الهه معه ويصعد الى أورشليم التى فى يهودا ••• وكل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرب فلينجد أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع لبيت الرب الذى فى أورشليم » (١٠٦) ويقول يوسفس : « ان اليهود لم يكونوا مستعدين لترك أملاكهم وثرواتهم والعودة الى أورشليم (١٠٧) • ولم يكن اذن عدد العائدين كبيرا ، ولم تكن أورشليم ، لا قبلهم ولا بعد وصولهم ، مدينة كبيرة • يقول أولبراليت : ان عدد سكان يهودا كلها سنة ٥٢٢ ق•م ، أى ١٦ سنة بعد أمر كورش ، لم يكن يزيد عن عشرين ألفا (١٠٨) • ومهما يكن من أمر عدد السكان فلا شك أن أورشليم كانت خربة ، بعيدة كل البعد عن الصورة التى رسمها خيال أشعيا • ويقول نحميا : « وأقيم حراسات من سكان أورشليم كل واحد على حراسته وكل واحد مقابل بيته • وكانت المدينة واسعة الجناب وعظيمة والشعب قليلا فى وسطها ولم تكن البيوت قد بنيت » (١٠٩) •

---

(١٠٦) عزرا ، ١ : ١ – ٤ •

(١٠٧) Josephus, Antiquities of the Jews, XI, 1, 3.

(١٠٨) فى : Albright, W. F., «The Biblical Period» Finkelestein, L., ed The Jews, Their History, Culture and Religion, Harper and Brothers, New York, 1949, p. 62, note 122.

(١٠٩) نحميا ، ٧ : ٣ – ٤ •

فأية مدينة عظيمة هذه التى يحرس أهلها كل واحد بيته ؟ لربما كانت « واسعة الجانب وعظيمة » قبل المنفى . أما الآن، فكما يقول نحميا : « والشعب قليل فى وسطها ولم تكن البيوت (التى تهدمت أثناء الحرب وبعده) قد بنيت » . ها هى أورشليم (العظيمة) مدينة داوود ومسكن الاله يهوه ، بلد خرب فيها نفر قليل من الفقراء والمعدمين . وكذلك الأرض حواليها خربة والأرض لا تزال محرمة من زمن الحرب لم تعمر . وأورشليم ، العاصمة التى ستصدر أمرها وقانونها الى الجزائر وأقصى البقاع والتى سيحج اليها الملوك والشعوب للحس الغبار على رجلى صهيون ، نقطة فى بحر الامبراطورية الفارسية من الهند الى تونس - لا يسمع لها خبر ولا يقام لها وزن .

فأمل أشعيا بأن يصبح كورش يهوديا فمسيحيا ليهوه لم يتحقق . وأمله فى أن تصبح الامبراطورية الجديدة امبراطورية يهوه اليهودية لم يتحقق . وأمله فى اعادة مجد داوود وتشييد أورشليم عاصمة للمملكة اليهودية لم يتحقق . ولا تزال أورشليم ثكلى بسكانها ، مقفرة بيوتها المهدومة ، وأراضيها الخربة ، عاجزة عن أن تحقق أقل رغباتها . فالعائدون الى أورشليم فى ذلك العهد ، كالعائدين اليها اليوم ، كانوا يعشيون على اعانات الغير . حتى الطبيعة غضبت عليهم فافسدت مواسم الزراعة . يقول حجى : « انتظرتم كثيرا واذا هو قليل ولما ادخلتموه البيت نفخت عليه ... لأجل بيتى الذى هو خراب وأنتم راكضون كل انسان الى بيته . لذلك منعت السموات من فوقكم الندى ومنعت الأرض غلتها . ودعوت بالحر على الأرض ... » (١١٠) . وكان أعداء يهودا يتربصون لها ، على استعداد للقضاء عليها بعد أن اقتطعوا منها ما استطاعوا من أراض وكنعنوا من سبوا من أهلها . وقبائل الشمال أيضا متربصة ، فهى لم تغفر بعد استيلاء داوود عليها وسلب سليمان لثروتها ورجالها حتى الأورشليميين أنفسهم ، الذين بقوا فى المدينة طوال هذه المدة .

(١١٠) حجى ، ١ : ٩ — ١١ ، ٢ : ١٥ — ١٧ .

لم يستطيبوا عودة المنفيين لانهم كانوا فيما مضى عبيدهم . وقد تملكوا أراضى وأملاك أسيادهم المنفيين . فعودة المنفيين تعنى نزع ملكيتهم .

ولا بد أن حزقيال كان يشير الى هذا الصراع بين الذين بقوا والذين عادوا ، على ملكية الأرض عندما قال : « فكان الى كلام الرب قائلا : يا ابن آدم ان الساكنين فى هذه الخرب فى أرض اسرائيل يتكلمون قائلين ان ابراهيم كان واحدا وقد ورث الأرض . ونحن كثيرون . لنا أعطيت الأرض ميراثا . لذلك قل لهم هكذا قال السيد الرب تأكلون بالدم وترفعون أعينكم الى أصنامكم وتسفكون الدم . أفترثون الأرض ؟ . وقفتم على سيفكم . فعلتم الرجس وكل منكم بخس امرأة صاحبه . أفترثون الأرض ؟ . ان الذين فى الخرب يسقطون بالسيف والذى هو على وجه الحقل أبذله للوحش ، مأكلا والذين فى الحصون والمغاير يموتون بالوباء . فأجعل الأرض خربة مقفرة وتبطل كبرياء عزتها وتخرب جبال اسرائيل بلا عابر ... » (١١١) . فتمسك اليهود الذين لم ينفوا ولم يهاجروا بأراضيهم معصية تجازى بالقتل ، لا سيما أن المطالب بها الآن هو البقية العنصرية « الصالحة » التى استخلفها يهوه ، والتى يريد لها أورشليم مهما كلف الثمن .

بل أكثر من هذا . كان العائدون يعتقدون أن اخوانهم الأورشليميين والسامريين مدنسين لا لسبب الا لأنهم لم يكونوا عنصريين . فهؤلاء ، فى نظر يهود بابل ، ليسوا بنى اسرائيل ، وان اعترفوا بابراهيم أبا لهم وطالبوا بتنفيذ عهد يهوه معه . هم فقط بنو اسرائيل . لقد وجه اليهم حزقيال كلاما وتهما كما لو كانوا غير يهود . قال : « ويل لرعاة اسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم (ولم يرعوا يهود بابل العائدين !) ، ... المريض لم تقووه والمجروح لم تعصبوه والمكسور لم تجبروه والمطرود (أى اليهود البابليون) لم تستردوه والضال لم تطلبوه بل بشدة وبعنف تسلطتم عليهم فتشتت بلا راع وصارت مأكلا لجميع

---

(١١١) حجى ، ٣٣ : ٢٤ — ٣٠ .

وحوش الحقل وتشتت • ضلت غنمى فى كل الجبال وعلى كل تل عال ... هكذا أفتقد غنمى وأخلصها من جميع الأماكن التى تشتتت اليها ... وأخرجها من الشعوب وأجمعها من الأراضى وآتى بها الى أرضها وأرعاها على جبال اسرائيل » (١١٢) •

وتفلت من فم حزقيال كلمة تدل على أن الرعاة الذين خاطبهم هكذا هم أيضا شعب يهوه ، فكأنه يراجع نفسه ويلومها • وهو يسعى لايجاد تفسير لحكم يهوه القاسى على قسم من شعبه دون آخر فلا يجد • ويقول : « ها أنذا أحكم بين شاة وشاة • بين كباش وتيوس » • ثم يبرر حكمه بنسبته الى شدة شعوره بضرورة العناية بالعائدين فيقول : « أهو صغير عندكم أن ترعوا المرعى الجيد وبقية مراعيكم تدوسونها بأرجلكم وأن تشربوا من المياه العميقة والبقية تكدرونها بأقدامكم • وغنمى ترعى من دوس أقدامكم وتشرب من كدر أرجلكم » (١١٣) •

حقا ، لقد كانت خيبة الأمل كبيرة جدا • وهى أكثر من خيبة أمل • لأنها الكشف عن ايمان خاطىء ووعد الهى كاذب • ولعله من المستحيل أن نتصور مشاعر اليهودى العائد من المنفى • ذلك لأننا عندما نعقد الأمل على الله ، لا نعقده على التاريخ • فالله فى نظرنا فوق التاريخ • فان خيب التاريخ أملنا ، فنحن نرجع لله نرجع للآخرة ولحسابه هناك • أما اذا عقدنا الأمل على التاريخ كأنه الله ، أى ان آمنا ، كما آمن أشعيا ، بأن كورش هو يمين الاله بالذات ، وأن كل عمل من أعماله عمل الهى ، لم يكن لنا مفر اذا لم يحقق التاريخ الهدف الموضوع من أجله • فليس هناك اله فوق الاله ، يعدل ما يجب تعديله • الاله ، فى نظر أشعيا ومعظم العائدين ، هو الذى عمل ويعمل لعودتهم ولبناء أورشليم ، وليس التاريخ • فخيبة التاريخ هنا هى خيبة الاله • وهذه حقيقة غير سهلة التحمل أو القبول •

---

(١١٢) حزقيال ، ٣٤ : ٢ – ١٣ •
(١١٣) المرجع السابق ، ٣٤ : ١٧ – ١٩ •

لذلك ، نتجت عنها حركتان . الأولى هى الحركة والدة المسيحية . وهى خلقت منفذا لها فى اعادة تفهم المملكة الداوودية ، وداوود ، وميثاق ابراهيم ، وبالطبع ، أورشليم الذى يعود الانسان اليها . ولا شك فى أنها حركة مبعثها الشعور الحنيفى ، ولكنه شعور تعقد بخيبة الأمل الناتجة عن عدم تحقيق الحلم الأشعيائى . فبدل المعانى المادية والبيولوجية والجغرافية الصرف للتراث العبرى كله ، أخذت هذه الحركة تضع معانى روحية معنوية .

ففى المقام الأول ، قالت هذه الحركة ان أورشليم التى نعود اليها ليست هذا الجبل وهذه المدينة بحدودها الجغرافية المحدودة بل مدينة سماوية ، أعضاؤها الأرواح الطيبة ، لا يمسها سوء ولا تبديل . فهى دائما كاملة منذ الأزل . وليس الاسرائيلى من يتسلسل حيوانيا من ذرية ابراهيم ، بل من يساهم روحيا فى تراث اسرائيل الروحى . وليس ميثاق ابراهيم بتمليكه قطعة أرض حدودها كذا وكذا بل يجعله أبا لمجموعة انسانية ميثاقها الايمان بالله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد وجد رجال هذه الحركة وحيهم فى آيات ارميا . وأرميا هذا عاش فى السنوات الأخيرة من حياة مملكة يهودا ، فى أورشليم . وأغلب الظن أنه رأى فتح البابليين لها . وقد استوحى ربه فى كل هذه الأفكار قبل النفى وقبل عودة المنفيين ، وليس ذلك عجيبا . فقد رأى أرميا أن المملكة الداوودية بالمعنى السياسى ؛ والمختارية بالمعنى الحيوانى ، وأورشليم بالمعنى الجغرافى كلها فى طريقها الى العدم . فنصح ذويه قائلا : « هكذا قال الرب لرجال يهودا وأورشليم : احرثوا لأنفسكم حرثا ولا تزرعوا فى الأشواك . اختتنوا للرب وانزعوا غرل قلوبكم يا رجال يهودا وسكان أورشليم » (١١٤) . فالمهم فى الأمر هو القلب ، وعليكم أن تطهروا قلوبكم وأن تجعلوها ، وهى طاهرة ، مسكنا للاله فيجعل ميثاقه فى قلوبكم .

« ها أيام تاتى يقول الرب وأقطع مع بيت اسرائيل (لاحظ عدم

---

(١١٤) ارميا ، ٤ : ٣ — ٤ .

حقده على المملكة الشمالية فهو يذكر بالخير المملكتين معا !) ومع بيت يهودا عهدا جديدا . ليس كالعهد الذى قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر (أى العهد المادى) بل هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام ... أجعل شريعتى فى داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم الها ... » (١١٥) .

« ها أيام تأتى يقول الرب وأعاقب كل مختون وأغلف . مصر ويهودا وبنى عمون وموآب ... لأن كل الأمم غلف وكل بيت اسرائيل غلف القلوب » (١١٦) .

« طوفوا فى شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا فى ساحاتها هل تجدون انسانا أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها . وان قالوا حى هو الرب فانهم يحلفون بالكذب . يارب أليست عيناك على الحق . ضربتهم فلم يتوجعوا . أفنيتهم وأبوا قبول التأديب . صلبوا وجوههم أكثر من الصخر . أبوا التوبة . أما أنا فقلت انما هم مساكين . قد جهلوا لأنهم لم يعرفوا طريق الرب قضاء الههم » (١١٧) .

وابتدأت هذه الحركة منذ ذلك الحين تؤول التوراة تأويلا جديدا وتضع معانى جديدة فى مخلفات الحكماء والأنبياء . وقد صارت هذه الحركة الى الأسينية وهى الحركة السابقة للمسيح عيسى ابن مريم . والأسينيون هم اليهود الذين كانوا يؤمنون هذا الايمان .

أما الحركة الثانية التى نتجت عن خيبة الأمل فى العودة فهى الغلو فى الترقب ليوم الخلاص والغلو فى الحقد على كورش والفارسيين من بعده ، بل على العالم لعدم تحقيق الحلم . وزعيم هذه الحركة هو أشعيا الثالث ، اذا صح وجود شخص ثالث يدعى أشعيا . وان لم يوجد ، فان الاصحاحات ٥٠ الى ٦٦ لا بد وأن تكون كتبت بيد أشعيا الثانى أو تلاميذه المعجبين به أشد الاعجاب .

---

(١١٥) ارميا ، ٣ : ٣١ – ٣٦ .
(١١٦) المرجع السابق ، ٩ : ٢٥ .
(١١٧) نفس المرجع ، ٥ : ١ – ٤ .

هكذا يردد خيبة الأمل التى شعر بها الجميع : « أين الذى أصعدهم من البحر مع راعى غنمه • أين الذى جعل فى وسطهم روح قدسه • الذى سير ليمين موسى ذراع مجده الذى شق المياه ليصنع لنفسه اسما أبديا » (١١٨) • فهو يلوم الاله لقعوده عن تحقيق وعده ويستحثه للقيام كما لو كان نائما • فيقول : « تطلع من السموات وانظر من مسكن قدسك ومجدك ، أين غيرتك وجبروتك • زفير أحشائك ومراحمك نحوى امتنعت • فانك أنت أبونا وان لم يعرفنا ابراهيم وان لم يدرنا اسرائيل (وابراهيم واسرائيل هنا ترمز الى الشعب اليهودى غير المنفى الذى تنكر للمنفيين عند العودة ورفض أن يسلمهم ما يمتلكونه من أراض وأملاك) ••• أرجع من أجل عبيدك أسباط ميراثك • الى قليل امتلك شعب قدسك • مضايقونا داسوا مقدسك ••• ليتك تشق السموات وتنزل ••• وقد صرنا كلنا كنجس وكثوب عدة كل أعمال برنا وقد ذبلنا كورقة ••• مدن قدسك صارت برية • صهيون صارت برية وأورشليم موحشة • بيت قدسنا وجمالنا حيث سبحك آباؤنا قد صار حريق نار وكل مشتهياتنا صارت خرابا • الأجل هذه تتجلد يارب ؟ أتسكت وتذلنا كل الذل » ؟ (١١٩) •

ثم يتوجه بعد هذه الأسئلة الى الغلو فى الحقد للعالم والتشفى بمصير بابل • وأول من يوجه له هذا الحقد هم اليهود الذى لم ينفوا • فيقول لهم ، متحدثا بلسان العائدين من المنفى : « أما أنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسى ورتبوا لهذا الجيش مائدة وملأوا لذاك الجيش خمرا ممزوجة (اشارة الى الذين تعاونوا مع البابليين ومع الفارسيين الفاتحين فأبقى كلاهما عليهم) فانى أعينكم للسيف وتجثون كلكم للذبح لأنى دعوت فلم تجيبوا • تكلمت فلم تسمعوا ••• لذلك ••• عبيدى سيأكلون وأنتم ستجوعون • عبيدى سيشربون وأنتم ستعطشون • عبيدى سيفرحون وأنتم ستحزنون • عبيدى سيترنحون من طيبة القلب وأنتم ستصرخون

---

(١١٨) اشعياء ، ٦٣ : ١١ — ١٢ •

(١١٩) المرجع السابق ، ٦٣ : ١٥ — ١٩ ، ٦٤ : ١ — ١٢ •

من كآبة القلب ومن انكسار الروح ستولولون . وتخلفون اسمكم لعنـــة لمختارى فيميتكم السيد الرب ويسمى عبيده اسما آخر » (١٢٠) لقـــد بلغ باليهود الحقد لاخوانهم مبلغا كبيرا جعلهم يتغنون بأنهم سيسقطون اسمهم كيهود ويتبنون اسما آخر كى لا تكون بينهم وبين غير المنفيين أية صلة .

ويتوجه بحقده بعد ذلك ، الى أمم العالم فيصب عليهم حمم الغضب والوعيد صبا ، الا أنه يمزج هذا الوعيد بالوعد لأورشليم اذ يقول : « قومى (يا أورشليم) استنيرى ... لأنه ها هى المظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم .. ارفعى عينيك حواليك .. وانظرى .. تحمل بناتك على الأيدى (أى أيدى الأمم) ... تتحول اليك ثروة البحر ويأتى اليك غنى الأمم . تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتى من شبا تحمل ذهبا ولبانا ... كل غنم قيدار تجتمع اليك ، كباش نبايوت تخدمك ... ان الجزائر تنتظرنى وسفن ترشيش ... لتأتى ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب الهك وقدوس اسرائيل لأنـــه مجدك . وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك ... ليؤتى اليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم . لأن الأمة والمملكة التى لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب الأمم . مجد لبنان اليك يأتى .. وبنو الذين قهروك يسيرون اليك خاضعين وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ويدعونك مدينة الرب صهيون قدوس اسرائيل . ترضعين لبن الأمم وترضعين ثدى ملوك ... الى الأبد (شعبك) يرثون الأرض ... روح السيد الرب ... أرسلنى ... لأنادى ... بيوم انتقام لالهنا . ويقف الأجانب ويرعـون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم . أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام الهنا . تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون » (١٢١)

ويأخذ به الحقد مأخذه . فيتصور الهه وقد رجع من غارته على الأعداء فلطخ قميصه بدمائهم فيتساءل مستغربا : « من ذا الآتى من آدوم

---

(١٢٠) اشعياء ، ٦٥ : ١١ ــ ١٥ .
(١٢١) المرجع السابق ، ٦٠ : ١ ــ ٢١ ، ٦١ : ١ ــ ٦ .

بثياب حمر من بصرة هذا البهى بملابسه المتعظم بكثرة قوته ٠ أنا ، المتكلم بالبر العظيم للخلاص ٠ مـا بال لباسك محمـر وثيابك كدائس المعصرة ٠ قد دست المعصرة وحدى ومن الشعوب لم يكن معى أحـد ٠ فدستهم بغضبى ووطئتهم بغيظى٠ فرش عصيرهم على ثيابى فلطخت كل ملابسى ٠ لأن يوم النقمة فى قلبى وسنة مفدى قد أتت » (١٢٢) ٠

ويعود بعد هذا الحقد الجنونى الممسوس من الشيطان باغداق البشائر لأورشليم فيقول : « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد ٠ اشيدى بالترنـم أيتها التى لم تمخض ٠ يرث نسلك أمما ويعمر مدنا خربة ٠ لحيظة تركتك وبمراحم عظيمة ساجمعك ٠ بفيضان الغضب حجبت وجهى عنك لحظة وباحسان أبدى أرحمك ٠ كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك ٠ فان الجبال تزول والآكام تتزعزع أما احسانى فلا يزول عنك وعهد سلامى لا يتزعزع » ٠

« أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية ٠ ها آنذا أبنى بالاثمـد حجارتك ، وبالياقوت الأزرق أؤسسك ٠ وأجعل شرفك ياقوتا وأبوابـك حجارة كهرمانية ٠ وكل تخومك حجارة كريمة ٠٠٠ أيها العطاش هلموا الى المياه ٠٠٠ كلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفكم ٠٠٠ اشـتروا وكلوا هلموا بلا فضة وبلا ثمن خمرا ولبنا ٠ أقطع لكم عهدا أبديا مراحـم داوود الصادقة ٠ هـو ذا قـد جعلته شـارعا للشـعوب رئيسا وموصيا للشعوب » (١٢٣) ٠

وبقيت العنصرية تتغذى على هذه الأفكار السامة المسمومة ، تترقب الفرص ٠ ومضت سنون ثمانون ٠

وفى سنة ٤٥٨ ق٠م ثارت مصر على الحكم الفارسى ٠ وتزعم الثورة ايناروش الليبى ٠ فتحسبت فارس ٠ وعندئذ قام نحميا ، وهو أحـد الخدم فى بلاط داره الذين ورثهم من سلفه ، واستاذن الملك بالذهاب

---

(١٢٢) اشعياء ، ٦٣ : ١ ــ ٤ ٠

(١٢٣) المرجع السابق ، ٥٤ : ١ ــ ١٢ ، ٥٥ : ١ ــ ٤ ٠

الى أورشليم لادارة أمورها بحيث يجعل منها دولة قوية ، تستطيع الصمود فى وجه مصر . هذا ما ادعاه نحميا عند سيده ملك فارس . أما فى قلبه وذاته ، فقد كان عنصريا شديد التعصب . فقد كان ينظر الى أمر سفره الى أورشليم كفتح من عند يهوه واستجابة لتبتله ودعائه . يقول : « حدث فى شهر كسلو فى السنة العشرين بينما كنت فى شوش القصر ، انه جاء حنانى واحد من أخوتى هو ورجل من يهودا فسالتهم عن اليهود الذين نجوا والذين بقوا من السبى وعن أورشليم . فقالوا لى ان الباقين الذين بقوا من السبى هناك فى البلاد هم فى شر عظيم وعار . وسور أورشليم منهدم وأبوابها محروقة بالنار . فلما سمعت هذا الكلام جلست وبكيت ونحت أياما . وفى شهر نيسان فى السنة العشرين لأرتحشتا الملك كانت خمر أمامه فحملت الخمر وأعطيت الملك . ولم أكن قبل مكمدا أمامه . فقال لى الملك لماذا وجهك مكمد وأنت غير مريض ؟ فقلت للملك : كيف لا يكمد وجهى والمدينة بيت مقابر آبائى خراب وأبوابها قد أكلتها النار . فقال لى الملك ماذا طالب أنت ؟ قلت للملك اذا سر الملك ، واذا أحسن عبدك أمامك ترسلنى الى يهودا الى مدينة قبور آبائى فأبنيها ... فحسن لدى الملك وأرسلنى . وقلت : فلتعط لى رسائل الى ولاة عبر النهـــر لكى يجيزونى . ورسالة الى آسـافا حـارس فردوس الملك لكى يعطنى أخشابا لسقف أبــواب القصر الذى للبيت ولســور المدينة . فأعطانى الملك ... وأرسل معى الملك رؤساء جيش وفرسانا » (١٢٤) .

ونجح نحميا ببناء الأسوار وترميم البيوت فى أورشليم ، بالرغم من معارضة سنبلاط السامرى ، حاكم القبائل الشمالية فى فلسطين التى لم تكن راضية عن أعمال البناء فى أورشليم خوفا من بعث التحكم اليهودى العنصرى . وسنبلاط هذا يهودى ـ فمعارضـته هى معارضـة اليهودى الحنيفى لليهودى العنصرى . ويذكر سفر نحميا أن العمونيين والعرب

---

(١٢٤) نحميا ، ١ : ١ ـ ٤ ، ٢ : ١ ـ ٩ .

شاركوا سنبلاط فى معارضته لنحميا (١٢٥) . الا أن نحميا تغلب على معارضتهم ونجح فى بناء الأسوار والهيكل (١٢٦) .

واتجه نحميا بعد ذلك الى الاصلاح الداخلى - أى اصلاح النفوس والقلوب - ليجعل من سكان يهودا عنصريين ونسخة عن آبائهم سكان المملكة الداوودية القدماء . فواجه عقبات كبيرة ، لا سيما أنه لم يكن له كثير المام بهذه الأمور . وأكبر هذه العقبات أن الكهنة المسؤولين عن معبد أورشليم كانوا من قبائل الشمال ، غير راضين عن أى بعث عنصرى فى أورشليم . لهذا رجع نحميا الى بابل ليجلب من هناك رجالا عنصريين متعصبين . فرجال يهودا ، سواء أكانوا من الباقين أم من العائدين ، غير صالحين فى نظره للقيام بهذا الاصلاح . ولا بد من المجىء من بابل بأحد تلاميذ أشعبا الذين يتلظون عنصرية وعصبية . ووقع الاختيار على عزرا ، « وهو كاتب ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الرب اله اسرائيل . هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها وليعلم اسرائيل فريضة وقضاء » (١٢٧) .

جاء عزرا الى يهودا يحمل رسالة من ملك فارس تأمر العمال والناس بأن يعطوا عزرا المال الذى يطلبه ، كى يجعل من مسكن يهوه فى أورشليم معبدا لا يقل عظمة عن معبد سليمان . وقد أمر الملك لا باعادة كل الذهب والفضة التى انتزعها البابليون من أورشليم فحسب ، بل بالتبرع من خزينة الدولة . ويعطينا سفر عزرا نص هذه الرسالة الغريبة التى أعطت لعزرا لا المال فحسب بل السلطة لتنفيذ القانون العنصرى باسم ملك فارس ومجازاة العصاة بالموت . تقول :

---

(١٢٥) « ولما سمع سنبلط الحورونى وطوبيا العبد العمونى وجشم العربى هزأوا بنا واحتقرونا ، وقالوا ما هذا الأمر الذى انتم عاملون . أعلى الملك تتمردون » . (نحميا ، ٢ : ١٩) .

(١٢٦) نحميا ، ٧ : ٦ ، ١٠ .

(١٢٧) راجع قصة بناء الأسوار والهيكل ومعارضة سكان يهودا لذلك فى نحميا ٤ ، ٥ ، ٦ .

« ... وباقى احتياج بيت الهك الذى يتفق لك أن تعطيه فاعطه من بيت خزائن الملك . ومنى أنا ارتحشتا الملك صدر أمر الى كل الخزنة الذين فى عبر النهر أن كل مـا يطلبه منكم عزرا الكـاهن كاتب شريعة السماء فليعمل بسرعة . الى مئة وزنة من الفضة ومئة كر من الحنطة ومئة بث من الخمر ... من دون تقييد ... أما أنت ياعزرا فحسب حكمة الهك التى بيدك ضع حكاما وقضاة يقضون لجميع الشعب الذى فى عبر النهر من جميع من يعرف شرائع الهك والذين لا يعرفون فعلموهـم . وكـل من لا يعمل شريعة الهـك وشريعة الملك فليقضى عليه عاجـلا . اما بالموت أو بالنفى أو بغرامة المال أو بالحبس ... وقد صدر منى أمر أن كل انسان يغير هذا الكلام تسحب خشبة بيته ويعلق مصلوبا عليهـا ويجعـل بيته مزبلة من أجـل هـذا ... » (١٢٨) . فمن الغريب أن اليهود العنصريين لا يتورعون عن اللجوء الى تسخير قوة الغير لتنفيذ مشاريعهم العنصرية على ذويهم . فكما أن عزرا جاء الى أورشليم مسلحا بسلطة الملك لتنفيذ شريعة يهـوه بين اليهود ، جـاء الصهيونيون الى فلسطين مسلحين بسلطة الامبراطورية البريطانية لتنفيذ عنصريتهم على يهود فلسطين العرب ، الذين سكنوا فى فلسـطين منـذ الآلاف ولـم يبارحوها . وكذلك على جميع اليهود الذين دخلوا فلسطين بعد ذلك . اذ لم يكن اليهودى فى فلسطين فى عهد الانتداب حرا فى اختيار المعيشة التى تحلو له ، بل كـان مجبرا على الالتحـاق بالمنظمـات الصهيونية والاعتماد عليها فى جميع أمور حياته ، من شخصية وعامة .

وقام عزرا يبحث حالة اليهود فى يهودا ، متبينا الداء كى يقدم لهم العلاج ، فرأت عبقريته العنصرية أن « ... لم ينفصل شعب اسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأراضى حسـب رجاساتهم من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسـيين والعمونيين والمـوآبيين والمصريين والأموريين . لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى . وكانت يد الرؤساء والولاة فى هذه الخيـانة

---

(١٢٨) عزرا ، ٧ : ٢٠ — ٢٦ ، ٦ : ١١ .

أولا » (١٢٩) . وطبعا فى نظر عزرا ، هذا هو شر اثم يمكن لليهودى ان يرتكبه ، وهو لا يكن غضبه على اخوانه اليهود لأنهم فعلوا ذلك فيقول : « فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابى وردائى ونتفت شعر رأسى وذقنى وجلست متحيرا . فاجتمع الى كل من ارتعد . من أجل خيانة المسبيين » وتشاور مع من يشاركه الغضب وعصبية العنصرية (١٣٠) .

وتفجرت عبقرية عزرا عن الدواء الشافى لهذه « الخيانة » الآثمة ، فاشار على اخوانه اليهود بحلين . الأول يهدف الى تطهير جسم الشعب أو العنصر اليهودى من الرجس الذى حل فيه . والثانى يهدف الى المحافظة على انفصالية اليهود عن شعوب البشر وتازيل عنصرهم الصافى .

فقال فى الحل الأول : « ان الأرض التى تدخلون لتمتلكوها هى أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضى برجاساتهم التى ملأوها بها من جهة الى جهة بنجاستهم . والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم الى الأبد لكى تتشددوا وتأكلوا خير الأرض وتورثوا بنيكم اياها الى الأبد » (١٣١) . يقول مخاطبا يهوه : « أفنعود ونتعدى وصاياك ونصاهر شعوب هذه الرجاسات ؟ أما تسخط علينا حتى تفنينا فلا تكون بقية ولا نجاة » (١٣٢) وعاد يخاطب اليهود : « انكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على اثم اسرائيل . فاعترفوا الآن للرب ، اله آبائكم واعملوا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة » (١٣٣) . واستجاب اليهود لعزرا منهم من استجاب لعنصرية شعوره ومنهم من استجاب خوفا من التهديد الذى هدده عزرا بقوله : « وكل من لا يأتى فى ثلاثة أيام (ويفعل هذا الانفصال المطلوب) حسب مشورة الرؤساء والشيوخ ،

---

(١٢٩) عزرا ، ٩ : ١ — ٢ .
(١٣٠) المرجع السابق ٩ : ٣ — ٤ .
(١٣١) نفس المرجع ٩ : ١١ — ١٢ .
(١٣٢) نفس المرجع ٩ : ١٤ .
(١٣٣) نفس المرجع ، ١٠ : ١٠ — ١١ .

يحرم كل ماله وهو **يفرز من جماعة أهل السبى** » (١٣٤) . فلا شك اذن أن « جماعة أهل السبى » الفت نفسها حزبا عنصريا منفصلا عن بقية اليهود ، يفصل بينها وبينهم هذا التعصب العنصرى الأعمى . ويذكر سفر عزرا أن كثيرا من الرجال ، بينهم كهنة وأحبار (١٣٥) ، اعترفوا باثمهم وقرروا الانفصال عن زوجاتهم وبنيهم وبناتهم وعاهدوا على أن لا يعودوا الى مثل هذه « الرجاسات » . « اننا قد خنا الهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض . ولكن الآن يوجد رجاء لاسرائيل فى هذا . فلنقطع الآن عهدا مع الهنا أن نخرج كل النساء والذين ولدوا منهن حسب مشورة سيدى (أى عزرا) والذين يخشون وصية الهنا وليعمل حسب الشريعة ، **قم (ياعزرا) فان عليك الأمر ونحن معك** » (١٣٦) .

أما الحل الثانى ، وهو الذى يهدف الى المحافظة على العنصر اليهودى صافيا فهو التمسك بشريعة معينة والامتثال الأعمى لأوامرها ومقاديرها . **وقد أعطى عزرا لليهود نصا من التوراة كان جمعها فى بابل** ونقحها حسب ما أملته عبقريته العنصرية . ولا شك أن ما أعطاه عزرا لليهود فى أورشليم مبنى على الشرائع السابقة التى عرفها اليهود من شرائع الآراميين الصحراويين فى العراق والجزيرة ، الى البلورات اللاحقة التى هضمت شيئا من التراث المصرى والتراث الكنعانى وما اشترعه داوود وكهنته من الأفكار والقوانين كما رأينا ، وما ابتدعه أشعيا من أفكار التطلع الى المخلص ، معيد مجد داوود وبناء أورشليم ، الى الحقد والتشفى لجميع البشر . والمهم فى الأمر ليس تحديد فحوى القانون الذى أشترعه عزرا . فهذا يمكن لنا معرفته من الأمثلة التى جاءت فى سفر عزرا ونحميا . المهم ، هو أن عزرا استطاع أن يدخل حزب «جماعة أهل السبى» من اليهود فى تعهد بأن يمتثلوا للقانون بحذافيره . « فكل الذين انفصلوا من شعوب الأراضى ... لصقوا باخوتهم وعظمائهم

---

(١٣٤) عزرا ، ١٠ : ٨ .

(١٣٥) « فوجد بين بنى الكهنة من اتخذ نساء غريبة . فمن بنى يشوع بن يوصاداف واخوته » ... الخ (عزرا ، ١٠ : ١٨) .

(١٣٦) المرجع السابق ، ١٠ : ٢ - ٤ .

ودخلوا فى قسم وحلف أن يسيروا فى شريعة الله التى أعطيت عن يد موسى ، وأن يحفظوا ويعملوا جميع وصايا الرب سيدنا وأحكامه وفرائضه » (١٣٧) .

والغاية من هذا التمسك بحذافير القانون وحرفه ، هى خلق هوية قومية عن طريق اشتراك أبنائها بأعمال معينة ، لا بالقلب بل بالجسم . فالقوم ، قوم ، فى نظر العنصرية ، لا فى اشتراكهم فى قيم روحية — وان كانوا كذلك لأصبحوا انسانيين عالميين — بل فى اشتراكهم فى قيم مادية ، فى أعمال جسمية ترى ، وقيامهم بوقائع زمانية معينة . لهذا قال سفر نحميا ، محددا فحوى الشريعة الجديدة — أو بالأحرى — البلورة الجديدة للشريعة القديمة — بأن مواد القانون الجديد ثلاثة . أولا : « أن لا نعطى بناتنا لشعوب الأرض ولا نأخذ بناتهم لبنينا » . ثانيا : أن نحافظ على السبت فلا « نأخذ منهم (أى من شعوب الأرض الذين يأتون بالبضائع) فى سبت ... وأن نترك للسنة السبعة (فى زراعة الأرض) والمطالبة فى كل دين (فى السنة السابعة) » . وثالثا : أن نجعل على أنفسنا ثلث شامل كل سنة لخدمة بيت الهنا ... (وأن نلقى) قرعا على قربان الحطب ... وباكورات أرضنا وباكورات ثمر كل شجرة سنة فسنة الى بيت الرب » (١٣٨) .

والبلورة الجديدة لشريعة موسى ، أو للتوراة ، هى ما اصطلح العلماء على تسميته بخيط (P) ، اشارة الى العمل الكهنوتى الذى قام به عزرا وغيره من الكهنة اليهود ، كهنة العنصرية . وبها اكتملت التوراة مصبحة الوثيقة (J, E, D, P) التى بين أيدينا . فعزرا ، بكل حق ، مؤسس الدين اليهودى كما نعرفه الآن . ولا عجب أن اعتبره اليهود « ابنا لله » لأنه بعمله هذا بعث الهوية اليهودية التى رأت النور ساطعا فى مملكة داوود وسليمان بعد أن قضت أجيالا طويلة فى الظلام ثم تقلصت وكادت تنقرض تماما من وجه الأرض لولا أن أنتجت عزرا .

---

(١٣٧) نحميا ، ١٠ : ٢٨ — ٢٩ .
(١٣٨) المرجع السابق ، ١٠ : ٣٠ — ٣٩ .

وعدم اتقان عملية التحريف من قبل عزرا للخيوط (J,E,D) هــو الذى جعل العلماء يكتشفون عزرا ، فالحنيفية لا تزال باقية فى التوراة لها آثارها ، بالرغــم من أن التحريف العزراوى جــاء مضــادا لهـــا . فالخيط (P) هو الذى رجح التفهم العنصرى على التفهم الحنيفى فيما وصله من التراث القديم من أن ميثاق ابراهيم وعد ذو اتجاه واحد . أو أن اصطفاء أبرهيم لا سبب له . فالميثاق كعقد ذى اتجاهين موجود فى التوراة . الا أن الأهمية الأيدلوجية مركزة كلها على الميثاق كوعد حرفى قطعه يهوه على نفسه .

وبينما قالت الخيوط (J, E) وربما (D) : « حكم واحد يكون لكم ، الغريب يكون كالوطنى . انى أنا الرب الهكم » (١٣٩) ، وأن هـــذا الحكم الواحد هو : « واذا أحدث انسان فى قريبه عيبا فكما فعل كذلك يفعل به . كسر بكسر وعين بعين وسن بسن . كما أحدث عيبا فى الانسان كذلك يحدث فيه » (١٤٠) . وهـــذه هى شريعة حمورابى بالذات ، جاء الخيط (P) يقـول : « الى غير اليهـودى يجوز لك أن تقرض مالك بالربا ، أما الى أخيك فلا يجوز أن تقرض مالك بالربا » (١٤١) .

انه الخيط (P) الذى جعل الاله يقول : « اسألنى ، فأعطيك الأمم ميراثا لك وأقاصى الأرض ملكا لك تحطمهم بقضيب من حديد . مثـل اناء خزاف تكسرهم » (١٤٢) . ولا شك أنه قالها بعد اختبارات عزرا التى تحدثنا عنها . لننظر الى هذه الآيات الآتية ، فالارادة العزراوية تتجلى فيها مكشوفة مع أن المفروض فيهـا أن تكون خطت بيد موسى : « اذا سألك ابنك غدا قائلا ، لم هذه الشهادات والفرائض والأحكام التى أوصاكم بها الرب الهنـا ، تقول لابنـك : كنا عبيدا لفرعون فى مصر فأخرجنا الرب من مصر بيد شديدة . وصنع الرب آيات وعجائب عظيمة

---

(١٣٩) اللاويين ، ٢٤ : ٢٢ .
(١٤٠) المرجع السابق ، ٢٤ : ١٩ — ٢٠ .
(١٤١) التثنية ، ٢٣ : ٢٠ .
(١٤٢) مزامير ، ٢ : ٨ — ٩ .

وردیئة بمصر بفرعون وجمیع بیته أمام أعیننا · وأخرجنا من هناك لكی یأتی بنا ویعطینا الأرض التی حلف لآبائنا » ·

« فأمرنا الرب أن نعمل جمیع هـذه الفرائض ونتقی الرب الهنا لیكون لنا خیر كل الأیام ویستبقینا (كـذا) كما فی هذا الیوم · وانه یكون لنا بر اذا حفظنا جمیع هذه الوصایا لنعملها أمام الرب الهنا كما أوصانا » (١٤٣) ·

وكذلك ، انه الخیط (P) الذی جعل الاله الذی قال « كل الأرض ملكی ··· أنا خالقها وربها » (١٤٤) ، ینصرف الی تعیین قطعة فی غایة الضآلة مسرحا لجمیع أعماله وآیاته (١٤٥) ·

وكذلك ، انه اله الحق الذی أمر « اذا كان للرجل امرأتان احداهما محبوبة والأخری مكروهة فولدتا له بنین المحبوبة والمكروهة · فان كان الابن البكر للمكروهة ، فیوم یقسم لبنیه ما كان له لا یحل له أن یقدم ابن المحبوبة بكرا علی ابن المكروهة البكر · بل یعرف ابن المكروهة بكرا لیعطیه نصیب اثنین من كل ما یوجد عنده لأنه هو أول قدرته له حـق البكوریة » (١٤٦) · ولكن الخیط (P) جعل هـذا الاله نفسـه یقول :

---

(١٤٣) التثنیة ، ٦ : ٢٠ ــ ٢٥ ·

(١٤٤) الخروج ، ١٩ : ٥ وما یلیها ·

(١٤٥) « وكلم الرب موسی قائلا « أوص بنی اسرائیل وقل لهم : انكم داخلون الی أرض كنعان · هذه هی الأرض التی تقع لكم نصیبا · أرض كنعان بتخومها · تكون لكم ناحیة الجنوب من بریة صین علی جانب أدوم · ویكون لكم تخم الجنوب من طرف بحر الملح الی الشرق ویدور لكم التخم من جنوب عقبة عقربیم ویعبر الی صین وتكون مخارجه من جنوب قادش برنیع ویخرج الی حصر أدار ویعبر الی عصمون · ثم یدور التخم من عصمون الی وادی مصر وتكون مخارجه عند البحر · وأما تخم الغرب فیكون البحر الكبیر لكم تخما ··· وهذا یكون لكم تخم الشمال · من البحر الكبیر ترسمون لكم الی جبل هور ومن جبل هور ترسمون الی مدخـل حماة وتكون مخارج التخم الی صـدد ··· » الخ (العدد ، ٣٤ : ١ ــ ١٢) ·

(١٤٦) التثنیة ، ٢١ : ١٥ ــ ١٧ ·

« ... ولكن عهدى أقيمه مع اسحاق الذى تلده لك سارة فى هـذا الوقت فى السنة الآتية » (١٤٧) .

والاله الذى قال : « لا تنظر ثور أخيك أو شاته شاردا وتتغاضى عنه بل ترده الى أخيك لا محالة . وان لم يكن أخوك قريبا منك أو لم تعرفه فضمه الى داخل بيتك ويكون عندك حتى يطلبه أخوك .. لا يحل لك أن تتغاضى ...» (١٤٨) فقد جعله الخيط (P) يبارك يعقوب بعد أن سلب بدهائه وخبثه ماشية والد زوجتيه ، وبعد أن طارد أخاه الى أن قذف به الى الهلاك فى الصحراء بالحيلة والدس والخداع (١٤٩) .

فلا شك اذن أن التوراة كانت فى يوم ما كتابا الهيا عزيزا . الا أن اليهود لا سيما داوود وكهنته وعزرا ورجاله - حرفوها وزاغوا بها عن أهدافها الالهية ومراميها الأخلاقية العالمية فجعلوا منها كتابا تعصبيا ، عنصريا . حتى اسم الاله بدل ، فبدل أن يدعى باسم الحق وهو الـه العالمين ورب البشر ، جعلته العنصرية اليهودية « اله ابراهيم ويعقوب واسرائيل » فحسب ، وان كان له أية علاقة بالعالمين فى نظر العنصرية فهى فقط ليقهر العالمين لصالح شعبه المختار . وجعلته العنصرية هـذه يقضى كل فطنته وذكائه وحسن تدبيره ووقته ونشاطه فى الابقاء على هذه الشرذمة (كما يقول أشعيا !) من البشر الذين لا أخلاق لهم وخدمتهم فى تمكينهم من الاستيلاء على قطعة أرض صغيرة وتقتيل أصحابها بعـد سلبهم أموالهم وأرضهم ونساءهـم وأطفالهم . لقـد جعلته الها قبليا ، انفصاليا ، وثنيا ، يهوديا ، عندما جعلته يغض الطرف عن كبائر شـعبه المختار ويهلك الشعوب الأخرى لمثل ذنوبهم أو لأقل منها .

وأدخل الخيط (P) الحقد والتشفى والكراهية والانتقام ، فأخذ يتغنى بأعمال العنف والقتل والتخريب . بل ويختلق هذه القصص اختلاقـا

---

(١٤٧) التكوين ، ١٧ : ١٨ - ٢١ .
(١٤٨) التثنية ، ٢٢ : ١ - ٣ .
(١٤٩) راجع قصص يعقوب فى سفر التكوين ، ٢٥ : ٢٧ - ٣٤ . اصحاحات ٢٧ الى ٣٣ .

لتتمجد العنصرية اليهودية بها . ليس الله ، بل عزرا هو القائل : « انكم عابرون الأردن الى أرض كنعان . فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم ... وتخربون جميع مرتفعاتهم . تملكون الأرض وتسكنون فيها لأنى قد أعطيتكم الأرض لكى تملكوها ... وان لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها ... متى أتى بك الرب الهك الى الأرض ... وطرد شعوبا كثيرة من أمامك ... لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم ، ولا تصاهرهم ، بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك . لأنه يرد ابنك من ورائى ... ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مذابحهم ... وتقطعون سواريهم ... لأنك أنت شعب مقدس للرب الهك . اياك قد اختار الرب الهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ... » . الى آخر هذا الهذيان المتوقد ظلما وكراهية (١٥٠) .

ولم يكن هناك تعبير آخر ، أو بلورة أخرى ، للدين اليهودى غير هذا . والصهيونية ليست ، الا بعثا لهذا الدين وهذا الفكر ، وهذه النزعة العنصرية الحاقدة . فهى لم تات بشىء جديد فى عالم الأيديولوجية التى ورثتها عن السلف اليهودى عبر العصور .

وهو من السخف بمكان أن نقر ادعاء اليهود أنفسهم والنصارى أن اليهود موحدون . وليس من عالم توراة اليوم لا يقر ويعترف بأن فى كلام التوراة عن الملأ الأعلى غشاوة ، وأن نظرية الاله تطورت فيها بمراحل عديدة . وعلماء التوراة المسيحيون يحاولون قصارى الجهد للحفاظ بتوحيدية الاله اليهودى فى العصر المتأخر على الأقل ، أى عصر عزرا وأشعيا .

بيد أن الحق الذى لا مراء فيه ، هو أن اله اليهود فى جميع هذه

---

(١٥٠) العدد ، ٣٣ : ٥٢ — ٥٥ ، التثنية ، ٧ : ١ — ٦ .

العصور ليس الها توحيديا ، لقد كان وثنا أو أوثانا وضعتها زوجة يعقوب تحت فستانها كما فى سفر التكوين (اصحاح ٣١ ، آيات ١٩ ، ٣٤ ، ٣٥) وأصبح جنيا تصارع مع يعقوب طيلة الليل حتى تغلب عليه يعقوب فسمى اسرائيل والمنتصر ، كما فى سفر التكوين (اصحاح ٣٢ ، آيات ٢٤ الى ٣٢) . وأصبح فى عهد موسى وداوود الها ناريا قبليا يسكن فى قمة الجبل ، سواء حوريب أو صهيون ، وتحول من بعد ذلك الى الاله الذى لا يعمل الا لليهود ، خيرا لهم وشرا لشعوب الأرض . فكان الاله المستعبد . نعم ، لقد أصبح مجردا وكان دائما أحدا . الا أنه لم يكن فى أى يوم الها توحيديا .

والصهيونية هى حركة هذا الاله فى التاريخ .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

المقـــدمة ٣
الصهيونية والدين اليهودى .. دراسة تحليلية لنشأة الانفرادية في التـــوراة ٧
ماهى الصهيونية ، وما هو الدين اليهودى ؟ ٧
أين الصهيونية فى أوائل العصر البطريكى ؟ ١٥
أين الصـــهيونية فى العصر البطريكى ؟ ١٩
هل من نزعة مغايرة للصهيونية فى العصر البطريكى ؟ . ٣٠
ما هى حقائق عصر الخروج ، وكيف تمثلتها الصهيونية ؟ . ٣٥
كيف نشأت المملكة الداوودية ، وما أثرها على الدين اليهـــــودى ؟ ٤٤
كيف تطور الدين اليهودى فى عصر ما قبل المنفى ؟ . ٥٥
ما هى الحصيلة الدينية لعصر المنفى (٥٨٧ - ٥٣٨ ق.م) ؟ ٦٩
كيف تطور الدين اليهودى بعد العودة ؟ ٧٧
محتويـــات الكتاب ٩٩

***

رقم الايداع ٨٨/٣٠٣٠
الترقيم الدولى ٠ ـ ١٣٤ ـ ٣٠٧ ـ ٩٧٧